جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

أصداء الثورة

دراسة تحليلية في ديوان (سِفْر الشهداء) لحسن طِلِب

إعداد

د/ نهى حمدي أحمد إبراهيم

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، مصر

(العدد السادس والثلاثون)

(الإصدار الثالث .. أغسطس)

(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

أصداء الثورة دراسة تحليلية في ديوان (سِفْر الشهداء) لحسن طِلب

نهى حمدي أحمد إبراهيم
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الإسكندرية، مصر
البريد الالكتروني: Nh2030nh2030@gmail.com

الملخص:

صرخةٌ مدويةٌ أطلقتها حناجر شابة نادت بالحرية وأعلت لواء المساواة والديموقراطية، فانبجس ضياء شرارة التغيير في غير بقعةٍ من مجتمعاتنا العربية مؤذنًا ببداية عهدٍ جديدٍ، فكما أينعت ثمار (الربيع العربي)، وآتت أكلها، ووقف يرقب ذلك الفيض الثوري، والمد السياسي بمزيدٍ من الترقب، وانقسم ذلك الآخر بين فسطاطين، أحدهما مؤيد، والآخر عارض، وقد حمل ذلك النتاج الشعري إضاءات فكرية ووجودية لرؤية ذلك الآخر للحرية وفضاءات التعبير، وقد أناخ به في معظم الأحايين في فضاءات شتى من تقييم لوضعيته وقدراته، واستبان به جادته ومنهاجه، وقد شكَّل ديوان (سفر الشهداء) لحسن طلب صورةً حيً نابضةً لأحداث ثور يناير ٢٠١١م، اتسم الفضاء بالثلبات في معطياته وأنساقه، مهما تعددت أشكاله ومواقعه، وقد اتصف الشهداء جميعهم على اختلاف مشاربهم بالاتحاد في جملٍ من الخصائص المميز لهم ، وقد تباينت الآلات التي اتكأ عليها الثوار مع آلات ذلك الآخر التي أبرزت بدورها لجوئه للعنف والتطرف والوحشي، وسوف تعالج هذه الدراسة أبعاد صورة الشهيد، وفضاءاته، وأسباب انهزام ثورته.

الكلمات المفتاحية: حسن طلب، إنجيل الثورة وقرآنها، سفر الشهداء، الربيع العربي، أدب الثورة.

Echoes of the Revolution An Analytical Study in the Divan (Book of Martyrs) by Hassan Tolib

Noha Hamdi Ahmed Ibrahim
Department of Arabic Language, Faculty of Education, Alexandria University, Egypt
Email: Nh2030nh2030@gmail.com

Abstract:
A resounding cry launched by a young woman calling for freedom and upholding the banner of equality and democracy. Dia sparked change in more than one part of our Arab societies, heralding the beginning of a new era. Of anticipation, and that other was divided between two camps, one supportive, and the other opposed, and that poetic production carried intellectual and existential illumination of that other's vision of freedom and spaces of expression, and it was discussed in most cases in various spaces from an assessment of his status and capabilities, and his earnestness and methodology were revealed by him. The collection of "The Book of Martyrs" by Hasan Talab constituted a lively, vibrant picture of the events of the January 2011 revolution. With the machines of that other, which in turn highlighted his resort to violence, extremism, and brutality, this study will address the dimensions of the image of the martyr, his spaces, and the reasons for the defeat of his revolution.

Keywords: Hassan Taleb, The Bible And The Qur'an Of The Revolution, The Book Of Martyrs, The Arab Spring, Literature Of The Revolution.

مقدمة:

صرخةٌ مدويةٌ أطلقتها حناجر شابة نادت بالحرية وأعلت لواء المساواة والديموقراطية، فانبجس ضياء شرارة التغيير في غير بقعةٍ من مجتمعاتنا العربية مؤذنًا ببداية عهدٍ جديدٍ، فقد أينعت ثمار (الربيع العربي)، وآتت أكلها، ووقف الشاعر يرقب ذلك الفيض الثوري، والمد السياسي بمزيدٍ ن الترقب، وانقسم ذلك الآخر بين فسطاطين، أحدهما مؤيد، والآخر مُعارِض، وقد حمل ذلك النتاج الشعري إضاءات فكرية ووجودية لرؤية الفنان المبدع للحرية وفضاءات التعبير، وقد أناخ به في معظم الأحايين في فضاءاتٍ شتى من تقييمٍ لوضعيته وقدراته، وقد استبان به جادته ومنهاجه.

أسئلة البحث:

- هل شكلت كتابات الشعراء وأدًا لعلالة الأمل في قلوبهم وكياناتهم المأزومة؟
- هل كمَّم خريف العرب أفواههم، ووضع عليها فدامًا صلدًا، وحال بينهم وبين عتبات البوح والمباشرة القصوى؟
- هل فأد اليأس والخوف كيانات أولئك المبدعين، فانزوت تعبيراتهم؟
- هل أتى الشعراء على ذكر ممادح ثورتهم وإيجابها، أم انحصرت طاقاتهم التعبيرية في وصف ذلك الفضاء السلبي الذي انخرطوا فيه؟
- هل اتشحت كتاباتهم بسوداوية مآلهم، أم ارتسمت آفاق الضياء والأمل في إبداعاتهم؟
- هل طُبِعت إبداعاتهم بميسم الشك في ربيع مرادهم من التغيير والإيجاب؟
- ما حجم النتاج الشعري الذي واكب اندلاع ثورة الربيع العربي، وما خارطة توزيعه على سنى ما بعد الثورة؟
- هل انخرط ذلك الآخر في فضاءات التعبير ذاتها، وكيف ارتأى الآخر المضاد له في التوجه والتعبير؟
- كيف انعكس ذلك في خطاباته الأدبية أثناء التجربة وبعدها؟

- هل اختلف النفس الشعري والتوجه بين الكتابات التبشيرية، وإبداع ما بعد الثورة؟
- هل غاض إبداع الثوري في مقابل الاندماج في الأحداث؟
- هل استفرغ الثوري المبدع وسعه في التعبير عن ذلك الحدث الجلل؟
- هل مثلت الكتابة –في أوج صورها– تدشينًا لبلوغ حالة قصوى من درجات الوعي بالواقع المأزوم من حولهم؟
- هل شكلت الكتابة انعتاقًا من دائرة السلب الذي طوق كياناتهم؟
- هل عَبَّرَت الكتابة عن بلوغهم أقصى درجات البوح والمبشرة في التعبير؟
- هل شَكَّل الشِّعْر –في تلك الأحايين العسرة– تعلةً لقلوبهم، ومسلاةً لكياناتهم الذاوية من مرارات اليأس؟
- هل أدلى الشعر بدلوه في تلك الأحايين في وضع حلولٍ دافعةٍ تجبر واقعهم المأزوم؟
- ما أهم تلك الأسئلة الوجودية التي بلورها أدب الربيع العربي؟
- وما أهم الأطروحات الفكرية التي قدمها أولئك المبدعون لمعالجة تلك المشكلات؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الإجابة عن التساؤلات المطروحة.

منهج البحث:

تتكئ القراءة على مفردات المنهج التحليلي.

أسباب اختيار البحث:

وقد دفعني لاختيار تلك القراءة جملةٌ من الأسباب، يأتي في مقدمتها موضوعها الذي يجسد حدثًا تاريخيًّا بالغ الأثر في تاريخ أمتنا العربية، قد أفرز بدوره جملةً من التغييرات التي بدلت أوجه الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، وتأتي أهمية هذا السِّفر الشِّعري من تسجيله الدقيق

بشفافيةٍ وصدقٍ لنتائج تلك الثورة، فشعره بات حجةً ناهضةً على مآلاتها، وكذا اضطلاع الشاعر بدورٍ أكاديميٍّ بارزٍ، فهو يمثل صوت النخبة المثقفة التي حملت على عاتقها مسؤولية الدور التوعوي للشعب من خلال الفن ولاسيما الشعر.

عينة البحث:

وتنصرف تلك القراءة إلى درس الجزء الثالث من ديوان (إنجيل الثورة وقرآنها) الذي يحمل عنوان (سِفْر الشهداء)، ويقع الديوان في (٢١١) مئتي واثنتي عشرة صفحة من القطع المتوسط، ويضم (٣٣) ثلاثًا وثلاثين قصيدة، انتمت جميعها &إلى شعر التفعيلة، عدا قصيدة من الشعر العمودي عارض بها الشابي، والديوان موضوع الدرس يمثل جماع الرؤية لذلك الحدث المفصلي في تاريخ الأمة العربية بعد أن تشكلت أبعاده، وتبلورت نتائجه.

حدود البحث:

يؤطر سفر الشهداء ل(حسن طلب) أحداث ثورة يناير ٢٠١١م في فضاء ميدان التحرير، وميادين مصر الثورية جميعها، ويتناول كذلك سيرة أولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم فداءً لترب الوطن في حرب مصر مع العدو الصهيوني، وحربها على الإرهاب في مختلف الأصعدة.

ويستعرض بالدراسة الموضوعية مفهوم الثورة، وأوضاعها، وسيرة الشهداء، وأحوال الثوار، وص-يحاتهم، ليبين عن طريقة الشاعر في عرض أفكاره، ورؤاه، ومشاهداته، وتجرِبته الحية في أرض ميدان الميدان في قالبٍ شعريٍّ ماتعٍ ثرٍّ يتناسب وطبيعة هذا الحدث الجلل.

الدراسات السابقة[١]:

لم يحظ الجزء الثالث من الديوان –(سفر الشهداء)– بأية دراسةٍ أكاديميةٍ، وقد تعرضت بعض المقالات النقدية لتسليط الضوء على الديوان موضوع الدرس في أجزائه السالفة، ولعل من بينها:

١. يسري عبد الله، الآليات الجمالية في شعر الثورة: ديوان إنجيل الثورة وقرآنها– إصحاح الثورة نموذجًا، مجلة كلية الآداب بقنا، ع ٤٠، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب (٢٠١٣م).

٢. يسري عبد الله، جدل الشعر والثور في شعر حسن طلب، مجل الفيصل، يونيو ٢٠١٧م. (مقال).

٣. عبد الرحيم العلام، كتاب الربيع العربي بين الشعر والرواية، موقع بالعربية، ٢٠ مارس ٢٠٢٢م (مقال).

تقسيم البحث:

وقد قُسِّمَ البحث إلى مقدمةٍ، وتمهيدٍ تناول ترجمةً موجزةً لسيرة الشاعر (حسن طلب)، وعرضًا لسياق إنتاج (سفر الشهداء)، وحديثًا عن شاعرية طلب في الديوان موضوع الدرس، وثلاثة مباحث: تناول الأول أبعاد الثورة في شعر طلب، وانصرف الثاني إلى درس أبعاد الفضاء في الديوان موضوع الدرس، واختص الثالث بفحص عناصر السيميائية في هذا السِّفْر الشعري، متناولًا بعض عناصر المناص والتناص والرمز، وذيلته بملحقٍ أوردت فيه ثبت الرسائل الجامعية والبحوث التي تناولت الأعمال الشعرية لحسن طلب، وقائمة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

(١) مرتبة من الأحدث للأقدم.

تمهيد:

أولًا: ترجمة الشاعر حسن طلب (١٩٤٤م-...)[١]

شاعرٌ مصريٌّ، من أبرز شعراء جيل السبعينات، برع في كتابة الشعر العمودي أثناء دراسته بالمرحلة الثانوية في مسقط رأسه (طهطا) بمحافظة سوهاج، وعندما انتقل بعدها إلى القاهرة، والتحق بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة التقى جملةً من الجماعات الأدبية، وافتن بالشعر الحر، وصار أحد مؤسسي جماعة (إضاءة) للشعر ١٩٧٧م.

شعره يتسم بالجزالة، ونصاعة العبارة، وقوة الأسلوب، وسلاسة المنطق، وينبني على قضايا واقعية وفلسفية وجودية، وهو أكاديميٌّ بارزٌ في الجامعة المصرية، فهو أستاذ علم الجمال بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة حلوان.

اتسم بغزارة الإنتاج الشعري الذي تتابع بعد توقفٍ دام خمس عشرة سنة بعد صدور ديوانه الأول (وشم على نهدي فتاة)، ليتوالى من بعد هذا الانقطاع صدور العديد من الدواوين الشعرية التي احتفى بها كبار النقاد[٢]، ولعل من بينها:

-وشم على نهدي فتاة (١٩٧٢م/ سيرة البنفسج ١٩٨٦م/ أزل النار في أبد النور ١٩٨٨م/ زمان الزبرجد ١٩٨٩م/ آية جيم ١٩٩٢م/ لا نيل إلا النيل ١٩٩٣م/مواقف أبي علي وديوان رسائله وبعض أغانيه ٢٠٠٢م/ حجر الفلاسفة ٢٠٠٦م/ عاش النشيد ٢٠٠٦/ متتالية مصرية ٢٠٠٧م/ يكتب الباه.. يقرأ الجسد ٢٠٠٩م/ إنجيل الثورة وقرآنها (١- آية الميدان) ٢٠١١م/ إنجيل الثورة وقرآنها (٢- إصحاح الثورة) ٢٠١٢م/قربان لإله الحرب ٢٠١٢م/ باب الصبابات..

(١) اتكأت الترجمة على ما ورد من سيرة ذاتية عن الشاعر ضمها ديوانه موضوع الدرس.

(٢) من أمثال: شكري عياد، ومصطفى ناصف، ومحمود أمين العالم، وسيزا قاسم، وعبد المنعم تليمة، ومحمد عبد المطلب، ومحمد حماسة عبد اللطيف.

فصل الخطاب ٢٠١٥م/ طهطا المهد.. طهطا اللحد ٢٠١٦م/ شموس القطب الآخر ٢٠١٦م)

وقد تُرجِمتْ بعض قصائده إلى لغاتٍ عدةٍ، نحو: الإنجليزية، والفَرنسية، والإيطالية، والألمانية، والإسبانية، واليونانية[١]، وصدر عن بعض أعماله الشعرية جملةٌ من الدراسات النقدية، والرسائل الجامعية.

وقد أنتج العديد من الدراسات الفلسفية، ومن بينها: المقدس والجميل/ أصل الفلسفة/ مصادرة الفن باسم الدين، والأخلاق، والسياسة.

وقد اضطلع بمهمة نائب رئيس مجلة (إبداع) (١٩٩١م–٢٠١٤م)، ويشغل منصب رئيس تحرير سلسلة (ذخائر التراث)، وهو عضوٌ بارزٌ في عددٍ من الهيئات الأدبية، وقد شارك في عددٍ كبيرٍ من المؤتمرات الأدبية والشعرية، ومثَّل مصر في العديد من بلدان العالم، وحصد جملةً من الجوائز المحلية والعالمية، ولعل من بينها: جائزة الدولة التشجيعية في الآداب ١٩٩٠م/ جائزة كفافيس اليونانية للشعر ١٩٩٥م/ جائزة السلطان قابوس للإبداع الثقافي ٢٠٠٦م/ جائز الدولة التقديرية ٢٠١٤م.

ثانيًا: سياق إنتاج ديوان (سفر الشهداء):

فاض معين (حسن طلب)، فأبدع ثلاثيته (إنجيل الثورة وقرآنها) التي سَجَّلَت أحداث ثورة يناير ٢٠١١م منذ اندلاعها في ميادين مصر، وقد اتسم إبداعه في هذا الحدث الجلل بالغزارة وطول النَّفَس الشعري، وقد كُتِبَتْ قصائد (سفر الشهداء) في المدة ما بين عامي (٢٠١١م–٢٠١٦م) لتكون مرآةً صادقةً

(١) تُرجِمت قصيدة (هذه كربلاء، وأنا لست الحسين) إلى الفَرنسية، وتم ترجمة بعض قصائد ديوان (إنجيل الثورة وقرآنها)، وعُرِضَت على مسرح سالزبورج بالنمسا (٢٠١٣)م.

لتلك الأحداث التي غَيَّرت تاريخ أمتنا العربية تغييرًا جذريًّا، وقد اتسمت قصائده بالجَرأة والقوة، ووسمتها شاعريته بميسمٍ فريدٍ من الإبداع.

لقد أبدع قصائده من أرض الميدان، يقول أحمد عبد المعطي حجازي: (في ثورة يناير لم يكن الشاعر حسن طلب مجرد شاهدٍ، أو متفرجٍ، أو متعاطفٍ من بعيد، وإنما كان واحدًا من الثوار مشاركًا بالقول والفعل، وهو لم ينتظر الوحي يأتيه، وإنما كان يستدعي الوحي، ويستحضره، فيلبيه، ويحضر) [١]

لقد شكلت ثورة يناير (٢٠١١م) نفثةً بالغة الدفق والحيوية والإيقاع والحماسة دفعت به إلى إنتاج زخمٍ شعريٍّ يقع في ثلاثة مجلدات دلف بها الشاعر إلى ساحات الحرية، وقد أدلى بدلوه في هذا الحدث المهيب الذي أعاد تشكيل الهوية العربية المعاصرة، مبرزًا في سِفْره الشعري تمفصلاته الرئيسة، وتشكلاته في محوري: الزمان، والمكان، يقول سلمان بو نعمان: (لكل ثورةٍ خصوصيتها من حيث الزمان والمكان، وليس هناك تشابه، أو تطابق بين ثورتين) [٢]

إن ديوان (سِفْر الشهداء) الذي ينضح بأسماء من ضحُّوا بدمائهم وأرواحهم فداءً للوطن لم يُخلق من عدمٍ، ولم يخرج من رحم الفراغ، وإنما سبقته إرهاصاتٌ شعريةٌ مهَّدَت بدورها لذلك الحدث الثوري، وبشَّرَتْ به قبل وقوعه بسنواتٍ عدةٍ، يقول أحمد عبد المعطي حجازي: (حسن طلب سبق غيره إلى الثورة، وذلك في قصائده التي هجا فيها حسني مبارك، ونشرها في مصر وخارجها في مجموعةٍ سمَّاها "عاش النشيد") [٣]

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي، ثلاثية حسن طلب ٢، جريدة الأهرام، الأربعاء ٢٩ من شوال ١٤٤٠هـ ٣ يوليو ٢٠١٩م السنة ١٤٣ العدد ٤٨٤٢١.

(٢) سلمان بو نعمان، فلسفة الثورات العربية (مقاربة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد)، ط مركز نماء للبحوث والدراسات: ١٩.

(٣) أحمد عبد المعطي حجازي، ثلاثية حسن طلب ٢، جريدة الأهرام، الأربعاء ٢٩ من شوال ١٤٤٠هـ ٣ يوليو ٢٠١٩م السنة ١٤٣ العدد ٤٨٤٢١.

إن قصائد هذا السِّفْر الشعري قد استغرق إنتاجها حوالي ست سنواتٍ، وقد منحت تلك المُدَّة مبدعها رؤيةً شفيفةً مستقرةً جلية المعالم والأبعاد لتفاصيل ذلك الحدث الثوري، ومتغيراته، ومحطاته الرئيسة ليمثِّل ذلك السِّفْر جماع رؤى الشاعر وفلسفته الثورية.

ثالثًا: حسن طلب و(سفر الشهداء):

ما إن تلج أوديته الشعرية حتى يبهرك الجمال، وتأسرك لغته الثرة بطاقاتها المدهشة وحمولتها الدلالية الكثيفة، وتصنع بك قوافيه الساحرة الأعاجيب، وتهديك صوره العطر والسوسنة، وتدلف بك عناوينه إلى حنايا القلب والعقل معًا، لتقف بك أمام شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء المعاصرين (حسن طلب).

عندما يُذْكَر (أدب الثورة) يطرق مسامعك اسم (إنجيل الثورة وقرآنها)، تلك الثلاثية التي خُلقت في رحم ميدان التحرير، ونسج فضاء أرض الميدان أحداثها، وجاءت قصائدها قشيبةً مهيبةً تدق أبواب القلوب الصدية إلى الحرية، لتسري في مسارب الروح عذبةً معبرةً عن انتفاضة شعبٍ أبيٍّ.

لقد التقى (حسن طلب) ذلك الجندي الباسل الذي أمضى زهرة شبابه في ميدان حرب الاستنزاف والعبور المجيد تحريرًا لترب وطنه من عدوه اللدود–التقى، وهو صار شيخًا في ثورة يناير أحداثها تجسيدًا لحربه السالفة على الخصم الغاشم، فاستنفر طاقاته الإنسانية والشعرية، وهو قابعٌ بين جنبات هذا الميدان، فراح يهتف بشعارات الثورة، وآزر شبابها، واستغلظت معًا صيحاتهم الثورية، واستوت على سوقها، وآتت أكلها.

حسن طلب شعره في ثلاثيته يدفق من القلب، فهو لا يتلمس صياغةً تخاطب أطر التغريب، ولا يتصنع ليصيب تكوينا لغويًا يضارع الفسيفاء على حساب المعنى، ولكنه يحيل أناته وعذاباته التي يقاسيها إثر سقوط أولئك الشهداء إلى كلماتٍ تحمل ظلالًا كثيفةً من الواقع والمأساة.

لعل حسن طلب في (سِفْر الشهداء) قد نذر شاعريته للتعبير عن هذا الحدث الجلل في تاريخ أمتنا العربية، فجاءت ألفاظه حرةً طليقةً من قيود الصنعة والزخرف كنفوس أولئك الثوار الأحرار، شجيةً كأحزانهم، أصيلةً كوجدانهم.

وقد تفاوتت قصائد هذا السِّفْر الشعري في الطول، فكانت أطولهم قصيدتا: (حزام النار.. وحزام العار)، وقصيدة (هل أكون قد عشقتُ عاهرة؟!)، وكأن الشاعر (حسن طلب) يريد أن يقف مليًّا على مآلات الثورة وخواتيمها، وتحليل أسباب هذا السلب الذي يعتمل في بنية المشهد الثوري، وقد شاركتهما قصيدة (صنوف الثائرين)، تلك التي أطنب فيها (حسن طلب) في الحديث عن فئات الشهداء.

وقد جهد الشاعر (حسن طلب) في الزج بالمتلقي غمار الحدث الثوري عبر صوغه جملة من القصائد التي اتكأ فيها على الأحداث السياسية حينها، وأسماء الشهداء، نحو: (مينا دانيال/ الشيخ عماد عفت/ الحسيني أبو ضيف)، وقد تحمل القصيدة اسم الشهيد نفسه، نحو ما فعل في قصيدته الموسومة (وصية شيماء)، والحدث، نحو قصائده الموسومة (جمعة المتحف/ جمعة النصر)، يقول يسري عبد الله: (ويلجأ الشاعر في تثوير خطابه الشعري إلى الاتكاء على التأريخ المباشر للحدث، والنصية على زمان حدوثه) [١]

ولعل قوة ذلك الحدث الثوري، ومعاينة الشاعر له جعلت ألفاظه تدفق بقوة مغايرةٍ لتجربته الشعرية السالفة، فلقد صارت تلك الأرواح التي تتساقط صرعى في ساحة الميدان ملهمةً لشاعريته، وجعلتها تسلك منحًى تبين به الذات الشاعرة عن إنسانيتها، ورؤاها، وواقعها، يقول أحمد عبد المعطي حجازي: (وقد استخدم

(١) يسري عبد الله، جدل الشعر والثورة في شعر حسن طلب، مجلة الفيصل، ٣٠ يونيو ٢٠١٧م.

حسن طلب في هذه الثلاثية لغةً جديدةً ابتعد فيها عن لغته الأولى التي نظم بها أعماله السابقة) [١].

إن طلب يعلن بقوةٍ عن ذلك الحدث المهيب عبر ألفاظه وتعبيراته التي تزلزل الكيان عندما تقف بك على تفاصيل أولئك الشهداء، وتحكي لحظاتهم الأخيرة في دنياهم، ليجعلك تقطر أنينا، وألمًا، وحسرةً عليهم.

المبحث الأول

الثورة والشهادة

الثورة لغةً:

إن الثورة لغةً تعني القوة، والفوران، والغضب، وقد ذكر الزبيدي في مادة (ثور): (قال ابن الأعرابي: ثورةٌ من رجال، وثروةٌ؛ يعني: عددٌ كثيرٌ، وثروةٌ من مالٍ لا غير.. ويثورُ من بين أصابعه، أي: ينبع بقوةٍ وشدةٍ. والثائر من المجاز: ثار ثائره، وفار فائره؛ يقال
ذلك إذا هاج الغضب. وثَوْرُ الغضب: حدّتُهُ. والثائر أيضًا: الغضبانُ) ١٠/ ٣٤٢
وجاء في لسان العرب: (ثورةٌ من رجال، وثورةٌ من مالٍ للكثير) [٢]

ومن ثم، فهي لم ترد في المعجمين السالفين بمعنى التغييرات الجذرية، ولكنها تبدو في المعاجم اللغوية الحديثة بمعنى المقاومة والتغيير، فقد ورد في (المعجم الوسيط) أن الثورة هي: (تغييرٌ أساسيٌّ في الأوضاع السياسية، والاجتماعية يقوم به الشعب في دولةٍ ما) [٣]

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي، ثلاثية حسن طلب ١، جريدة الأهرام، الأربعاء ٢٩ من شوال ١٤٤٠هـ ٣ يوليو ٢٠١٩م السنة ١٤٣ العدد ٤٨٤٢١.

(٢) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ط دار صادر بيروت– لبنان، ط٣ ١٤١٤ هـ: ٤/ ١١٠.

(٣) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، القاهرة، مصر: ١/ ١٠٢.

وقد عرَّف معجم اللغة العربية المعاصرة (الثورة) بأنها: (اندفاعٌ عنيفٌ من جماهير الشعب نحو تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية تغييرًا أساسيًّا) [١]

الثورة اصطلاحًا:

يعد مصطلح الثورة من المصطلحات الشائكة التي تتقاطع مع جملةٍ من المصطلحات الأخرى، نحو: الانتفاضة، والتمرد، والانقلاب، والفوضى.

وقد ذهب (عبد الوهاب الكيالي) في (موسوعة السياسة) إلى أن مفهوم (الثورة–Revolution) يشير إلى (تغييراتٍ فجائيةٍ وجذريةٍ، تتم في الظروف الاجتماعية والسياسية، أي عندما يتم تغيير حكم قائم– والنظام الاجتماعي والقانوني المصاحب له– بصورةٍ فجائيةٍ، وأحيانًا عنيفة بحكمٍ آخرٍ). وقد تشير – في الوقت نفسه– إلى (تغييراتٍ ذات طابعٍ جذريٍّ "راديكالي" غير سياسية، حتى وإن تمت هذه التغييرات ببطءٍ، ودون عنفٍ) [٢]

وقد ذكر (عبد المنعم الحفني) أن الثورة تعني: (في اللغة اضطراب وهيجان شائع، وفي الاصطلاح تغيير جوهري في نظام الدولة من شأنه استبدال طبقة من الحكام بطبقةٍ أخرى، وما لم يكن التغيير إيديولوجيًّا شاملًا لكل نواحي النشاط الإنساني في المجتمع، فالأحرى إطلاق اسم الانتفاضة عليه، أو أنه لا يعدو أن يكون انقلابًا. والعنف طابع الثورات. والثورة بالمعنى الفلسفي قد نقصد بها التغيير الجذري الشامل في شأن من الشؤون كأن نقول ثورة التكنولوجيا، أو الثورة المعلوماتية) [٣]

---

(١) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط عالم الكتب، القاهرة– مصر، ط١ ٢٠٠٨م: ١/ ٣٣٦

(٢) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر: ١/ ٨٧٠.

(٣) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة– مصر، ط٣ ٢٠٠٠م: ٢٣٤

وأورد وضاح زيتون في (معجم المصطلحات السياسية) تعريف الثورة بأنها: (انقلابٌ جذريٌّ في حياة المجتمع، يؤدي إلى قلب النظام الاجتماعي، وتوطيد نظام تقدمي جديد ناقلة السلطة من أيدي طبقةٍ رجعيةٍ إلى طبقةٍ تقدميةٍ، ويتم هذا الانتقال عبر نضالٍ طبقيٍّ حادٍ، غالبًا ما يأخذ شكل حرب أهلية) (١)

وقد أوردت (الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية) مفهوم (الثورة) بأنها: (التحول الجذري في التكوينات الاجتماعية، والسياسية، والنظام العام، وفي العَلاقات، والخبرات المتبادلة بين الناس، وقد يقصد به التغير الدائري الذي يكشف عن أنماط جديدة، والثورة مصطلحٌ يقصد به الآن مقاومة نظام الملكية ذاته، وليس مجرد التمرد والعصيان) (٢)

ويُعَرِّف (معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء) الثورة بأنها: (تغيرٌ أساسيٌّ في الأوضاع السياسية والاجتماعية يقوم به الشعب في دولةٍ ما. ويعبر الفقهاء عن هذا المصطلح بمفاهيم مقاربة، مثل: الخروج على الحاكم، أو سل السيف) (٣)

وقد قدَّم (سامي ذبيان) تعريفًا (للثورة) بأنها: (التغير المفاجئ في النظام الاجتماعي، والسياسي، والمؤسسي القائم. قد تكون الثورة عنيفة، وقد تتخللها عمليات سفك دماء، لكنها تكون –دومًا– من عمل قوى منظمة، أو غير منظمة) (٤)

---

(١) وضاح زيتون، معجم المصطلحات السياسية، ط نبلاء ناشرون وموزعون– الأردن— عمان، وط دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن– عمان،٢٠١٤م: ١١١.

(٢) إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية: ١٤٠

(٣) سامي الصلاحات، معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا– الولايات المتحدة الأمريكية، ط١ ٢٠٠٧م: ٧٦

(٤) سامي ذبيان وآخرون، قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط رياض الريس للكتب والنشر، ، ط١ ١٩٩٠م: ١٧٦.

إن تلك الحركات الثورية التي تشد على أيدي الطغاة والمستبدين لا تشغل حيزًا زمنيًا بالغ الامتداد، يقول سلمان بو نعمان: (إن الثورة في العصر الحديث لا تحدث إلا في إطار نظامٍ سياسيٍّ، واقتصادي، واجتماعي منظم يُطلق عليه الدولة، كما أن الثورة حالةٌ مؤقتةٌ) (١)

ولعل المقياس الذي ينبغي أن يعوَّل عليه في قياس الثورات هو حسْب ما أشار خالد المعيني: (مدى قدرتها على إحداث انتقالات نوعية عميقة في بنية المجتمع ماديًّا من خلال الاقتصاد والتنمية، ومعنويًّا من خلال نظامٍ سياسيٍّ، ونخبة جديدة، وتكريس منظومة قيمٍ اجتماعيةٍ جديدةٍ) (٢)

وقد ذهب خالد المعيني إلى تقسيم الثورة إلى شقين، (يتعلق الشق الأول بنمط التغييرات الكبرى والجذرية التي تحصل في المجتمع نتيجة انتقال السلطة من طبقةٍ اجتماعيةٍ إلى أخرى. والثاني يطال قشرة السلطة السياسية فحسب) (٣)

ثورة الربيع العربي:

ذهب (فيصل محمد عبد الغفار) إلى أن ثورة الربيع العربي تعني: (الاحتجاجات والتظاهرات والانتفاضات الشعبية السلمية الواسعة التي بدأت شرارتها من تونس ٢٠١٠م) (٤)

---

(١) سلمان بو نعمان، فلسفة الثورات العربية (مقاربة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد)، ط مركز نماء للبحوث والدراسات: ١٥.

(٢) خالد المعيني، كي لا تسرق الثورات (دراسات موضوعية في ربيع الثورات العربية)، منشورات ضفاف، بيروت، ط١ ٢٠١٤م: ١١.

(٣) خالد المعيني، كي لا تسرق الثورات (دراسات موضوعية في ربيع الثورات العربية)، منشورات ضفاف، بيروت، ط١ ٢٠١٤م: ١٢.

(٤) فيصل محمد عبد الغفار، الربيع العربي، ط الجنادرية للنشر والتوزيع، الأردن، ط١ ٢٠١٦م: ٩.

لم يكرِّس الشاعر (حسن طلب) ديوانه لشهداء ثورة يناير ٢٠١١م فحسب، فقد أتى على ذكر جملةٍ من الشهداء المتباينين في مشاربهم، واتجاهاتهم، وجغرافيتهم، وأعمارهم، وفضاءات نهاياتهم، فلم يقصر عنايته على شهداء الميادين الثورية فحسب، بل إنه قد استدعى سير شهداء الجيش الذين ضحوا بأرواحهم الطاهر فداءً لترب سيناء، فهؤلاء الجنود البواسل الذين رووا صحراءها بدمائهم الزكية الطاهرة قد اغتالتهم يد الغدر الغاشمة الأثيمة، ليُقْسِم من بقي منهم على قيد تلك الحياة أن يثأروا لأرواح أولئك الشهداء، فالتاريخ يشهد أنهم ما ضعفوا، وما استكانوا.

وقد أفسح المجال –كذلك– للوقوف مليًّا على ذكر غير شهيدٍ من شهداء الشرطة، وحوادث الإرهاب التي راح ضحيتها كثرٌ من المدنيين الآمنين، ليبين عن الوجه القبيح المشوه للفعل الإجرامي، فالإرهاب لا دين له.

إن الثوري يمثل بُضعَةً من الكيان اللاثوري، فهما يرتبطان بوشائج القربى والجوار، ويشكلان معًا اللحمة والسدى للجسد العربي الفتي، فكلاهما لا ينفصم عن الآخر مهما تباينت مواقفه تجاه الأحداث المفصلية في تاريخ أمتنا العربية. لقد مثَّل الآخر اللاثوري ناهضةً قوية لثوار الربيع العربي، بعد أن أنهكتهم مجريات الحدث الثوري وسوداوية نتائجه في معظم الأقطار العربية.

مفتتح الديوان/ السفر الشعري:

إن (حسن طلب) يعلن في مفتتح الجزء الثالث من ديوانه (إنجيل الثورة وقرآنها) الموسوم (سفر الشهداء) أن ثمن الحرية والكرامة الإنسانية قد دفعها الشهداء بدمائهم الزكية التي استحالت إلى باقاتٍ، وهي لم تطلب من الأحياء شيئًا سوى المحافظة على ميراث الحرية التي استودعوها إياهم، يقول طلب[١]:

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٨.

هذه أجسادنا في باحة الميدان: باقات
ومنذ الأمس ملقاة على الإسفلت..
باتت ما أظلتها هنا إلا الغمامةْ
أصبحت لم ينعها ناعٍ
سوى سجع الحمامة

ولعل مفتتح السفر الشعري يشي بمقاصد أولئك الشهداء بكل جلاءٍ، يقول طلب[(١)] :

نحن متنا لتعيشوا بكرامة
وتركنا بينكم أسماءنا ذكرى

مختتم الديوان:

ويمضي الشاعر (حسن طلب)، وهو على أعتاب ختام ديوانه ليبدع معارضةً قشيبةً زاهيةً ثرةً لقصيدة (أبي القاسم الشابي) (إذا الشعب يومًا أراد الحياة) [(٢)]، فقد نسج فيها قصة شابين تبادلا الشوق والهُيَام أثناء قيام الثورة، وقد صمما على إتمام قصة حبهما على الرغم من تلك الأصوات التي علت بالرفض والاستهجان، وقررا تتويجها بالزواج لتثمر مولودًا (فجرًا) يشع اسمه إيجابًا وإشراقةً وأملًا في مستقبلٍ باهرٍ سعيدٍ.

ليختتم الشاعر قصيدته بقوله[(٣)]:

فصاحا معًا: إن أردنا الحياةْ فلابد من أن تريد الحياةْ

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٧.

(٢) أبو القاسم الشابي، ديوانه، قدَّم له وشرَحَ: أحمد حسن بسج، ط دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط٤ ٢٠٠٥م: ٧٠.

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٩٦..

إذا الشـــعب يومًـــا أراد الحيـــاةْ فلابـــد مـــن أن يجيـــب الإلـــه!

فإرادتهما نافذةٌ متحققةٌ، ولا مرد لرغبتهما الجامحة، ولا مناص للأقدار من تنفيذها. ليأتي مختتم القصيدة مؤكِدًا حالة التوافق والمطاوعة والتطابق بين إرادة الشعب واستجابة الإله، فالإيمان الحق بالقضية سيؤول حتمًا إلى تحقيقها لا محالة بأمر الخالق عز وجل.

لقد أراد (حسن طلب) أن يختتم سِفْره الشعري بمعزوفةٍ للأمل، فحصن الثورة شامخٌ لن يتزعزع مهما عصفت به رياح التغيير، وسماء الوطن لن تظلم أبدًا، فحِمام الموت الذي خَيَّم على الثوار في الميدان لن يثنيهم عن مطالبهم، ولن يصيب أرواحهم بالسقم والجدب، فصيحاتهم ستظل مزلزلةً، ولن تثبطهم الهزيمة بعد أن باءوا بالغبن، ولن تدور بخلدهم طيوف اليأس، فهم شديدو الأوام للحرية، فمهما سرى الجفاف في ربيعهم، واختنقت نسماته، وتبدد النور في دجاه، فلن يحيدوا عن أحلامهم، ولن تُهْزَم أرواحهم، بل ستظل فتيةً قويةً مناضلةً، ولن يضلوا طريقهم للمجد والعلا، يقول سلمان بو نعمان: (الحالة الثورية العربية ما تزال تعيش تطورات مفتوحة الاحتمالات، وتفاعلات داخلية وخارجية مؤثرة على مسار الثورة ،ومصيرها، وأهدافها) [١]

يقول طلب[٢]:

لا تنجح الثورة بالعاطل والباطل
لا تنجح إلا إن بأناها من الداخل
كي نطهر النفوس من أدرانها
نحرر العقول من أوثانها.

(١) سلمان بو نعمان، فلسفة الثورات العربية (مقاربة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد)، ط مركز نماء للبحوث والدراسات: ١٦.

(٢) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٢٠٠.

فجراح الثورة التي تثغب دمًا وقيحًا سوف تلتئم بجهود المخلصين الأوفياء الأنقياء المثابرين، يقول طلب[١]:

غدا إذا المصري من سباته أفاق
من علته برئ
ليصبح الميدان عن آخره قد امتلأ
وأصبحت واحة أمن دائم
لكل من لجأ.. يومئذٍ
يؤمن بالثورة كل من صبأ

الثورة والشعر:

آمن طلب أن الشعر هو نفثةٌ حارةٌ تحمل آيات المواجهة ومقاومة السلب، فهو القائل في محاورته الشعرية مع (أمل دنقل) الموسومة (زبرجدة إلى أمل دنقل) [٢]:

القريض اعتراض
وكلامٌ من القلب
يجنح للشعب

فلُبُّ الشعر اعتراضٌ، وغاية الثوري –هو الآخر– المقاومة ودرء السلب في واقعه، لقد قضى الثوري وطره، وشفى حاجة نفسه من ذلك الحدث الجلل، فأبدع قصائد شتى تفيض برغباتٍ حرَّى في درء الاستبداد، يقول يسري عبد الله:

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٢٠٢.
(٢) حسن طلب، زبرجدة إلى أمل دنقل، مجلة الدوحة، العدد ٨، أغسطس ١٩٨٢م: ٥٩.

(يعتمد ديوان "إنجيل الثورة وقرآنها" على جدل السياسي والجمالي، وعبر جدلهما الخلاق تتشكل البنى المركزية للديوان، وتتحقق سمات خطابه الثوري) [١]

لقد أخذت الأمة سِنَة، ألجمت ألسنتهم عن المطالبة بحقوقهم حتى أزف الربيع العربي الذي أعاد الأمور إلى نصابها، وقوَّم معوجها، لعل ذلك الحدث الثوري قد أزال صدأ النفوس، وأبان جلية أمر استبداد والطغيان الذي استشرى في بنية المجتمعات العربية كالداء العضال. لقد كشف ذلك الحدث الثوري ما أكنته تلك الذوات الشاعرة من أمثال: حسن طلب، وحلمي سالم، وأحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم ممن رفض السلب الذي يضرب بقوةٍ في جذور المجتمع العربي، فأبدوه من خلال قصائدهم التي تصدى بعضهم لإلقائها وسط الجموع، يقول عسكر بابازاده أقدم: (الأدب محورٌ فاعلٌ في الأحداث الثورية، وكان كثيرٌ من الشعراء يعملون على تثوير اللحظة من خلال إلقاء قصائدهم في محافل حاشدة) [٢]

لقد تزود الثوار من تجربتهم فيضًا شعوريًّا أخرجه المبدعون من الشعراء من أمثال حسن طلب في نفاثاتٍ بديعةٍ حارةٍ ملأى بزخمٍ نفسيٍّ وفكريٍّ. إن ذلك الفيض الثوري الذي داهم تلك الكيانات المؤرقة قد زلزل ثوابت أوضاعهم المترعة بالسلب، وأقض مضجعهم. لقد شكَّل الفعل (الثوري) حدثا مخصِبًا لقرائح أولئك المبدعين الذين صارت أنهار إبداعهم دُفقًا مترعة بِرَيِّق تعبيراتهم وصورهم الفنية،

(١) يسري عبد الله، جدل الشعر والثورة في شعر حسن طلب، مجلة الفيصل، ٣٠ يونيو ٢٠١٧م.

(٢) عسكر بابازاده أقدم، وآخرون، النزعة الملتزمة في شعر ثورات الربيع العربي بمصر (مقاربة وصفية تحليلية في نماذج مختارة)، مجلة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية في جيرفت، السنة الرابعة عشرة، العدد (٥٣)، ربيع ١٤٤٣هـ: ١٤٨.

يقول رائد محمد نوري حميد: (تعين على الشعر بعد ثورة تموز اكتشاف محتوى اللحظة الثورية الاجتماعي، وتخليده فنيًّا) [١]

لقد سَجَّلَ (حسن طلب) وعصبته أناتهم في مهراقهم، ودَوَّنُوا نفاثاتهم بدمائهم، فقد أبلغتهم الثورة مُنْيَتَهُم في التعبير، وكسرت ذلك الرتاج الموصد أمام التغيير، يقول طه حسين: (والأدب في أثناء الثورة حين تضطرب نفوس الناس بالأمل والطموح، ونفوس فريق منهم بالخوف والمحافظة، متواضعٌ مقتصدٌ يمشي على استحياءٍ) [٢]، ولكن المتأمل في شعر (حسن طلب) يلحظ قوة إبداعه الشعري، وضربه بسهمٍ وافرٍ في الفنية.

لقد مثلت الكتابة في هذي الأحايين العسرة طوق النجاة، ومعول البناء الروحي الفاعل في غضون ذلك الاضطراب القاسي، وتلك المآلات الوخيمة التي حاصرتهم وأثقلتهم بالأنين. لقد ضعضعت تلك النهايات الوخيمة كياناتهم وأرواحهم، وأوصدت بدورها أبواب الأمل والرجاء المشرعة، فصار الشعر هو آلتهم الفريدة للصمود في وجه هذا السلب، يقول طلب[٣]:

لو أوحيت أمس إلى الشاعر في محرابه آبدة
لو جملة.. لو مقطع
لو مطلع مستطلع للغيب.. لو قافية شاردة!
أو لو قصيدة كأنها عقيدة

---

(١) رائد محمد نوري حميد، صورة الثورة في الشعر العربي في العراق (ثورة الرابع عشر من تموزفي العراق، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد الرابع والخمسون– مارس ٢٠٢٠م: ٢٤٨.

(٢) طه حسين، خصام ونقد، ط دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط٩ مارس ١٩٧٩م: ١٥٨.

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٤٩.

إذا تتلى على الميدان لا يمل من سماعها
بل يشرع الثوار في الرقص على إيقاعها!
ولا يكفون عن استرجاعها
لو نغمة سائدة!

فأن تكتب في هذي الأثناء العسرة، فأنت توقن أن الفن هو أكسير الحياة وقبلتها، يقول عبد الكريم أمين: (العَلاقة بين الشعر والثورة عَلاقةٌ وطيدةٌ، عَلاقةٌ تفاعليةٌ) (١)

لقد فأد خريفهم العربي قلوب أولئك الشعراء، وعلى رأسهم (حسن طلب)، وأصاب حشاشة نفوسهم، ولكنه لم يصمت ألسنتهم، ولم يقعد بهم عن بلوغ ذرى شاعريتهم وإبداعهم. لقد سلك أولئك الشعراء مسارب الإبداع تعلةً لقلوبهم، وشحذًا لعزائمهم، وإيقاظا لهممهم، فلقد راحت أقلامهم تسطر أمانيها ورجاءها في تلك الأثناء العصيبة.

لقد وقف (طلب) على إحدى أدوار الشاعر في هذا الحدث الثوري الجلل، إذ يقول(٢) :

ليس على الشاعر يا ابنتي سوى نحت القوافي
إنما ليس على الشاعر..إن لم يفهم الجاموس!

فوظيفة الشاعر من وجهة نظر الشاعر (حسن طلب) تقتصر على إبداع الشعر الذي يكون بمنزلة المنارة التي يهتدي بها السائرون، ولكنه لن يتحمل تبعة فساد وعي الآخرين، يقول نذير العظمة: (سبق الشاعر المؤرخ في تصوير

(١) عبد الكريم أمين محمد سليمان، الشعر الثوري دراسة ثقافية، ديوان (كالرسل أتوا) لمحمد سليمان نموذجًا: ١١٦

(٢) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٦٤

الكارثة، وتزويد المواطن والوطن بالرؤية القومية، ومعرفة الذات والآخر في إطار صحوةٍ إنسانيةٍ شاملةٍ تؤمن بالمساواة والعدل والحرية) [١]

إن ذلك الحدث الثوري قد مثَّل أمرًا مفصليًّا في تاريخ تلك المجتمعات العربية، ظهر صداه في أدب تلك الفترة الحاسمة.يقول نذير العظمة: (إن الشاعر الثوري الحق يتخطى المناسبات، ويتجاوز حدود الزمان والمكان، ويتفلت من الأطر المحلية ليسمو بتجرِبته الثورية إلى مستوى إنساني يفرض نفسه شكلًا ومضمونًا، لا على الناطق بلغته وحاضر تجربته فحسب، بل على الإنسان في كل زمانٍ ومكان) [٢] لقد استند (حسن طلب) إلى حمى الشعر، فأناخ في ربوعه، واحتمى بظلله، فأبدع عيون قصائده في ثلاثيته البديعة (إنجيل الثورة وقرآنها). إن ذلك الفعل الثوري لم يخلق بدوره لجةً متضاربةً من الأصوات الشعرية، بل سارت معظمها على وتيرةٍ متجانسةٍ تأييدًا لذلك الفعل، وتعضيدًا له.

لقد أبت قوى الاستبداد أن تحل أصفاد أولئك الثوريين بعد أن أطاحت بأحلامهم وطموحاتهم، وانتهت بهم إلى درك الجحيم، وحوَّلت معاهدهم وساحاتهم إلى هشيم. لقد نفر أولئك الثوار من ساحاتهم وميادينهم بعد خيبات ربيعهم كما تنفر الظباء من ظللها، ليعودوا إليها ثانيةً بعد قوتهم، يقول طلب[٣]:

غدًا إذا المصري من سباته أفاق.. من علته برئ

ليصبح الميدان عن آخره قد امتلأ

فامتلأت كل الميادين معًا

وأصبحت واحة أمنٍ دائمٍ لكل مَن لجأ

---

(١) نذير العظمة، أدب المقاومة بين الأسطورة والتاريخ، ط دار علاء الدين، سورية– دمشق، ط١ ٢٠١٥م: ٩.

(٢) المرجع السابق: ١١.

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٢٠٠.

وقد ضمد الشعر جروحهم الثخينة، وجعلهم في أكنةٍ من الزلل والانهيار، فقد مثَّل في كياناتهم كنيفًا درأ عنهم ويلات مآلهم. لقد مثَّل الشعر للشاعر (حسن طلب) وعصبته خير مقيل من هجير أزمتهم الوجودية، فلقد اغتذوا بالشعر في غضون أزمتهم بعد أن كانت ذواتهم وكياناتهم نواهلًا. لعل لهيب الحماسة الذي اشتد أواره في صدور أولئك الثوار كانوا يقتاتون له بالشِّعْر والفنون التي أذكته، وأفاضت عذبه وريقه، فركام جثث القتلى من الثوار قد أفرز بدوره ركامًا نابضًا من القصائد التي أشعلت فورةً ودافعيةً في صدور مبدعيها، وفي مقدمتهم (حسن طلب)، فأنتجت أدبًا يفيض قوةً وحماسةً. لقد استنطقت ثورة الربيع العربي ألسن المبدعين وحناجرهم، ففاضت بشعر يدفق قوةً ومضاءً وعزمًا، فمياه القول الراكدة التي أسنت من طول مكثها بلا حراك، قد آن لها أن تفيض أنهرًا عذبةً على ألسنتهم، فلقد احتبست آمالهم بعد خريفهم، ولم تنحبس كلماتهم على أفواههم.

لقد مَضَّهم سلب خريفهم، فراحوا يسطرون أبدع قصائدهم لتحمل أنة قلوبهم الموجوعة، وتنفي ترهات واقعهم، وتقيلهم من عثرتهم. لقد فاض إبداعهم الثر الخصيب كما سال دمهم السفيك في شوارع ساحاتهم وميادينهم، يقول طه حسين: (الأدب الذي ينشأ أثناء الثورة أدبٌ ضعيفٌ فاترٌ، لأن الأحداث المادية الواقعة أقوى منه، وأظهر أثرًا) [١]، ولكن إبداع حسن طلب في ثلاثيته (إنجيل الثورة وقرآنها) كان متناسبًا مع قوة الحدث الثوري، ومتسقًا معه.

لقد كانت أصواتهم الشعرية نديةً قبل اندلاع ثورتهم، فما بح خريفهم حناجرهم، وما جف مداد أقلامهم، وما نزر فيض إبداعهم. لقد انتاشهم الشعر من الهلكة النفسية، وطرح عن كاهلهم ثقل الأزمة التي عانوها بعدما آض ربيعهم

(١) طه حسين، خصام ونقد، ط دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط٩ مارس ١٩٧٩م: ..١٥٩

إلى البوار، وقد صاغوا ما في صدورهم المثقلة بالهموم والأوجاع في أشعارٍ تفيض بمتانة التعبير وفنيته، واستنفدوا جل طاقاتهم المكبوتة في تصوير واقعهم، وما يخترمه من سلبٍ وترهات. إن دماء الثوار الذكية التي روت الميادين والطرقات لم تشكل في كيانات أولئك المبدعين فاجعةً تثير أنينهم وحسراتهم، بل مثلت جذوةً أشعلت حماستهم، وسالت بها قصائدهم فياضةً معبرةً عن أفكارهم وثورتهم.

إن تلك التجربة ما شكمت شاعرية (حسن طلب) وأمثاله من الشعراء، ولا قَوَّضَت إبداعهم، بل كان فيض أقلامهم في تلك الأثناء العصيبة هو خير مأتى لثباتهم وصمودهم، وأفضل مكرمة لهم تلهج بها ألسن اللاحقين عليهم.

لقد وضعت تلك القوى السياسية الفدام على أفواه أولئك المبدعين، فانحسر تعبيرهم –في معظم الأحايين– عن ذواتهم، وآلامهم، ومشكلاتهم السياسية، والاجتماعية، والفكرية، وضاقت عليهم –في بعضها– سبل التعبير وطرائقه، فالتجأوا إلى الرمز والقناع. لقد مثَّل الفعل الثوري تجربةً فذةً فريدةً في كيانات أولئك المبدعين، امتاحت بدورها أقصى طاقات التعبير عن غاياتهم ورؤاهم. لقد أضحت تلك النفوس المعذبة بخيبات أحلامها كالةً من ديمومة السلب الذي يعتور كياناتها المخلصة، ويفند توجهاتها ورؤاها.

لقد وأد خريف العرب آمالهم، واغتال أحلاهم، فطوفان الأسئلة الوجودية الذي يعتمل في عقولهم المستعرة قد فاض بزخمٍ بالغٍ من النصوص الأدبية التي اتخذت غير شكلٍ أدبي لها، لقد أبت الكلمة أن تحتضر على ألسنة أولئك المبدعين كما احتضرت أحلامهم الوليدة، واختنقت صيحاتهم الثائرة في حناجرهم. لقد أمسى حبل ثورتهم التي اعتصموا به خلقًا، وقد أضحى ذلك الحدث مفعمًا بالسلب ومترعًا بالألم والبوار، وكأنهم قد استجاروا من هيجائهم بالنار.

لقد أناخ بهم خريفهم في هجير أزمتهم، وأسلم قيادهم إلى هجير الوساوس والظنون والهواجس، فاحتموا في رحاب الشعر المخضرة بأقلامهم، المزدانة

بإبداعهم، فألقوا فيها بأحمال قلوبهم المثقلة بالأنين، فراحوا يطوفون بين جنباتها الفنية بحثًا عن الإجابات الشاردة الضالة لأسئلتهم الوجودية المحتدمة في عقولهم وكياناتهم.

لقد حبطت أعمالهم، وأخلفت ظنونهم، وخطل رجاؤهم، وزلت أقدامهم، فراحوا يمترون الشعر لسفرتهم الطويلة بعد خيبة ربيعهم، فأبدع طلب ما يناهز المِئة قصيدة، موزعة على أجزاء ثلاثيته البديعة.

لقد صاروا بنجوةٍ من الهلاك النفسي عندما احتموا بذرى الإبداع وقله في تلك الأثناء العصيبة، وقد أخذوا في طرح مغاليق أحداث ربيعهم، وفندوها للوقوف على أسبابها الخفية، وبحث عللها وطرق التعامل الأمثل معها. لقد آضت الثورة جاثومًا قابعًا على صدورهم المنهكة من السلب الذي يعتورهم. لقد آثر (حسن طلب) وعصبته الثورية الشاعرة أن يدشنوا إبدعهم الغض الثر في غضون أزمتهم لينخلعوا به من ربقة السلب الذي يطوقهم، ويخترم نفوسهم، ويزلزل كياناتهم.

لقد فجرت تلك الثورات في مدن الربيع العربي الشعور الجارف بالحاجة إلى مسايرة الركب في ذهن الشعراء الذين استقبلوا تلك الصيحات بأنةٍ مكتومةٍ بين جوانحهم، فقد آضت تلك النوازع الحبيسة في صدورهم إلى رغباتٍ مسطورةٍ على صفحات دواوينهم تلهب الشعور، وتزكي النفوس التواقة إلى الحرية والمجد والكفاح، وقد فجرت شرارة (الربيع العربي) نفس الشاعر (حسن طلب) ينبوعًا ثرًّا، فراح يمتاح من بئرها البدئ أصفي الألفاظ والدلالات.

إن ضياء الثورة البراق الذي خلب أعين الثوار قد قاد (حسن طلب) لإفراز جملة ثرة من الأشعار المترعة بعبق تجرِبته، وحماسته، وطموحه، وأفكاره، ورؤاه،

يقول مجدي عبد الهادي: (سيكولوجية الثورة نفسها تعمل على سقف الطموح البشري، في ظل ما تمثله الثورات من لحظات انتشاءٍ تاريخيٍّ) [١]

لقد أزهق الثوار أرواحهم تلبيةً لنداء الحرية والكرامة الإنسانية، وقد أقامت الثورة زيغ الساحة السياسية، وأصلحت معوجها، ووحدت شتاتها. لقد همَّ الربيع العربي ذلك الآخر، فأقض مضجعه، وأثار غيرته على ذلك الكيان الجمعي العربي.

الثوار:

لقد روى أولئك الثوار تلك الساحات والميادين بدمائهم الطاهرة، بعد أن آمنوا أن ربيعهم الثوري مخلصٌ لهم من ذلك السلب الذي يطوق كياناتهم لينتهي بهم المطاف إلى اللاشيء، وقد أدلجوا في ليلهم البهيم بعد مآلهم الوخيم، وقد عانوا –حينئذٍ– مرارة الاغتراب، وانجرفت بهم تلك النهاية إلى مضايق الفقد والهلاك والخسارة. لقد استطاعت صورة الثوري أن تكسر عتبات الصمت، وأن تُحَلِّق في فضاءٍ رحيبٍ من البوح والمباشرة والتحدي.

ولعل نار ثأر (حسن طلب) للشهداء التي أجت في صدورهم أجيجًا لم تزدهم إلا قوةً وصمودًا وإصرارًا، وما جعلت فيض شاعريتهم أجاجًا، بل صار عذبًا فراتًا لذةً للشاربين.

لقد أضحت تلك التجرِبة طرادًا بين الموت والحرية، وقد أرادوا لذواتهم أن تحوز قصب السبق على الفناء والسلب، وسيبقى أثر مكتسباتهم مادامت الحياة، يقول طلب[٢]:

قطعنا دابر الطغيان منذ اليوم

(١) مجدي عبد الهادي وآخرون، م٢ يناير (التاريخ. الثورة. التأويل)، ط عرب للنشر والتوزيع، مصر، ط١ أبريل ٢–١١م: ١٠.

(٢) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٩.

حتى يرث المولى القدير

الدار والديور... في يوم القيامة!

لقد فجرت تلك الثورة بركان رغباتهم المشتعل بحماستهم، وقوَّضت أركان وجلهم الذي استشرى في نفوس بعضهم، وخيَّم على طاقاتهم. إن هجير الصمت الذي التاعوا بلفحه وشظاه قد آن له أن يستحيل بردًا وسلامًا يثلج الصدور، ويعد بالتغيير الجذري الذي طالما انتظروه، وباتت أعينهم قريرةً به.

إن حلم التغيير الذي طال أبعادًا شتَّى في مناحي الحياة سواء أكانت سياسية، أم اجتماعية، أم فكرية قد ظلت صورته تناوش عقولهم وكياناتهم المؤرقة بالجمود والاستلاب.

لقد قدحت شرارة الثورة في مدن الربيع العربي الرغبة المستميتة في التغيير التي اغتذت بدماء الثوار، ولم تمثل صيحات الثوار سيفًا كهامًا، فأبعاد التغيير قاطعةٌ حاسمةٌ، قد انجرف في تيارها الشديد أطيافٌ شتى.

لقد ارتأى أولئك الثوار في وابل الرصاص والقنابل التي استقرت في سويداء قلوبهم المخلصة رجمًا لا يهابونها تبشر بالضياء لا بالفناء، وقد سطروا برجام قبورهم شهادة ميلاد أمةٍ أبيةٍ، يقول طه حسين: (أدب الثورة هو الأدب الذي سينتجه أبناؤنا وأحفادنا حين يتاح للثورة أن تبلغ غايتها، وتحقق أغراضها، وتضع عن المصريين إصر حياتهم تلك التي ضاقت بهم، وضاقوا بها) [١]

لقد نبضت عروقهم بدم الثورة الفوَّار الذي استمدوه من عقيدتهم وإيمانهم الراسخ بالتغيير. لقد مثَّل ذلك الثوري نبراسًا يستضاء به في ظلمات الجمود

(١) طه حسين، خصام ونقد، ط دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط٩ مارس ١٩٧٩م:١٦٣.

الطاغ الذي يستلب الكيان، وينبوعًا فياضًا ثرًّا ينهلون منه، ودواءً ناجعًا لذلك المرض العضال الذي استشرى في بنية المجتمع العربي بأكمله.

لقد امتاح أولئك الثوار أفكارهم ورؤاهم من عينٍ عذبةٍ ليست آجنة بمصالح، أو ترهات. إن تلك الهيمنة السياسية بمنزلة غل قد آن له أن ينحل على أيدي أولئك الثوار.

لقد استغلظ جهد الثوار وسعيهم الدؤوب نحو الحرية، واستوى على سوقه، وآتى أكله ثورةً مجيدةً تدحض قوى الاستبداد. لقد انقضت بذلك الفعل الثوري المجيد تلك السنون الخوادع التي غيبت وعي تلك الشعوب العربية بحقوقها وحرياتها.

لقد عطف الثوار على بعضهم وتحنوا، يقول طلب في قصيدته الموسومة (شهيد فنان) [1]:

راح.. ولم يتناول وجبته معنا

فبكيناه .. وودعناه

كم أوجعنا أنَّا ودَّعنا أشجعنا.

ودعنا إنسانًا. لم يعرف إلا في الميدان أمانًا

لقد تجاوبوا مع معطيات ذلك الحدث الفريد في تاريخ أمتنا العربية، فحق العربي في عيشةٍ أبيةٍ كريمةٍ حرةٍ هو حقٌّ قارٌّ مركوزٌ في العقل الجمعي العربي.

لقد مجَّ أولئك الثوار النجيع نخبًا للحرية والعدالة والمساواة، وما أقعدوا عن مناصرة دعواهم على الرغم مما يقاسونه من سيطرةٍ ممضةٍ لقواهم وطاقاتهم، وما تقاعسوا عن مسيرتهم، فذلك الرصاص الذي انهال عليهم كصيبٍ من السماء لم يثنهم عن مواصلة تجربتهم.

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٥٢

إن صنيع الثائر العربي يعد بمنزلة صوًى لشعوب تنير دربها، وتقف بها على هدفها المنشود، فلقد وقف الثوار موقفًا صارمًا من ذلك الاستلاب الذي تعانيه الأمة العربية.

لقد كانت الثورة في مبتدئها كالأم الرؤوم التي عطفت على أبنائها، وجمعت شمل كلمتهم في الأقطار العربية كافة حتى آلت بهم إلى سؤومٍ شتت آمالهم، وبددت استقرارهم وأمنهم، لقد توحدت كلمة الثوار، وقويت عزيمتهم بعدما انتهبتهم الوساوس والظنون، وأسلمتهم إلى طرقٍ مسدودةٍ من الرجاء والأمل.

طبقات (الشهداء/ الثائرين):

نظَم (طلب) قصيدته الماتعة (طبقات الشهداء) الذي راح يعدد فيها صنوفهم التي تنوعت بين: شهيد مجهول/ شهيد مبتسم/ شهيد فنان/ الشاب الظريف/ حفل بدائي/ شهيدة الصحافة/ بأي ذنب قتلت/ شهيد القضاء)

ولعل سفر الشهداء يدشن تكريسًا لحالة الاختلاف التي تتناسب وطبيعة ذلك الحدث الثوري في تاريخ أمتنا العربية، فجاء السفر الثالث ليحتفي –هو الآخر– بكل ما هو مغاير من صنوف.

وقد قام (طلب) في قصيدته الموسومة (طبقات الثائرين) بتقسيم الثوار في قلب الميدان إلى صنوفٍ شتى، وكأن هذا الميدان هو نموذجٌ مصغرٌ للحياة، تنعكس في مرآته طبائع الشخوص وحقيقتها، ولعل من بين أبرز تلك النعوت:

الثائر القديس	الثائر الطاووس	الثائر العبوس	الثائر الخسيس	الثائر المتعوس
وهو مثالٌ للثائر المضحي بحياته وصولًا للحرية المبتغاة، يصفه طلب بقوله: يخطب في أصحابه.. يقول: ليست ثورة تلك التي يمكن أن يقمعها البوليس لابد للثورة أن تخترق الناموس!	وهو ذلك المتحذلق المتفنن في الظهور الذي يختال بهيئته، يقول طلب عنه: الفضول يغريه بأن يبحث في هاتفه المحمول عن خياله المعكوس	وهو الذي يقطب جبينه، ويدعي العلم، ويفتي الناس وهو جاهل متكئ عللا وريقاته التي يديم فيها النظر ليختلس أفكاره، يقول طلب: يفتي بما ليس له به علم	وهو الذي لا حياء له الذي يتسم بالنذالة والخسة وسوء الأخلاق، يقول عنه الشاعر: يندس في الزحام كي يحتك بالأجسام	وهو الإمعة الذي لا مبدأ له، ولا يستقر على حالٍ بين جماعات الثوار، يقول طلب: كان إذا انضم إلى جماعةٍ.. تلفظه فورًا إلى أخرى

وكأن ذلك الميدان قد استحال بلورةً شفيفةً تنم عن حال المجتمع، وتكشف بجلاءٍ ووضوحٍ أمراضه، وما يعتوره من أزماتٍ، وإشكالياتٍ أخلاقيةٍ وفكرية، ومن ثم، فقد أماطت قصيدته تلك اللثام عن بعض العوار في نفوس أولئك المتظاهرين

الذين اتصف بعضهم بالسلب، وقد استبدوا بالساحات الثورية في أخريات أيام الثورة.

ولعل المقارنة بين أصحاب الفريقين تفضي إلى اتساع الهوة بينهما، فبينما ضمَّت طبقات الشهداء فئات شتى اتسمت جميعها بفيض من النبل والإخلاص والإيمان والبراءة والنقاء، فقد حملت طبقات الثائرين نماذج إيجابية، وقفت جنبًا إلى جنبٍ مع صنوفٍ سلبيةٍ شتى اتصفت بالغرور والخواء والدناءة والجهل.

أسباب قيام الثورة:

١ – النظم السياسية:

لقد عاشت تلك العصبة الثورية مستكنةً تحت ظلل الهيمنة السياسية التي تفرض طقوسًا شتى من الاستبداد، فلقد سطروا مجدهم الثوري بدمائهم، وقد شبوا حينئذٍ عن طوق السلطة، وانفلتوا من إسار الاتباع ليُحَلِّقُوا في مسار الابتداع، تقودهم محركاتٌ كثرٌ إلى ساحة المرفأ الثوري.

لقد عانت تلك الشعوب العربية الثائرة أزمانًا من شقوات الحياة، ومآلات الضلال والفساد، فقد أضاع أولئك العتاة الغاصبون عزمات شعوبهم، فاستحقوا ذلك المصير الذي آلوا إليه في أعقاب ذلك الحدث المفصلي في تاريخ الأمة العربية جمعاء، يقول طلب[١] :

يا للطغاة السذج.. العتاهيةْ
كأنهم أسنان مشطٍ..
في صعودهم وفي سقوطهم: سواسية!
قصتهم واحدة العنوان..
والحبكة والأركان: لم تزل كما هي!

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٥٣.

٢- الرغبة في التغيير الجذري:

لقد شكلت تلك الثورة مدعاة للتغيير الجوهري الذي صاحت به، واستلزمته، فبنية تلك النظم التي تداعت جراء الثورة قد أغوت أولئك الثوار بضرورة التغيير، ووقفت بهم على متطلباته، وآليات تنفيذه، يقول رجب أبو دبوس: (الثورة تعد ظاهرةً سوية، وليست شاذةً، أو منحرفةً، كما يذهب عادةً أصحاب التفسير النفسي، وذلك لأنها تقوم على تناقضات المجتمع الأساسية الكامنة في النظم الاجتماعية) [١]

وكأن ذلك الفعل الثوري قد أطلق الوحش القابع في صدورهم من كناسه، وأحال ليلهم البهيم إلى صبحٍ أغرٍّ، ولم يضح الحدث الثوري مرعًى وخيمًا، أو أرضًا كنودًا، بل طابت ثماره ومغارسه في نفوس أولئك الثوار الذين ضحوا بحيواتهم فداءً للوطن على مذبح الثورة إعلاءً لقيم المساواة والحرية والعدالة.

لقد أخصب الربيع العربي، وآتى أكله تغييرًا جوهريًّا، يقول سعد عبد القادر حميد: (هناك عَلاقة بين الثورة والإصلاح) [٢]، فقد رئم جرح تلك الشعوب العربية بعد ذلك الحدث الثوري، والتامت أحزانها، وعم القلوب أملٌ بالغٌ في انقضاء تلك السنين العجاف التي آلمت كيان الأمة العربية جمعاء. لقد ارتأى (حسن طلب) في تلك النداءات الثورية التي تفجرت في ميادين عواصم الربيع العربي أنشودةً عذبةً، وترنيمةً سماويةً هدهدت تلك النفوس الكالة من عذابات الجمود والاستبداد.

---

(١) رجب أبو دبوس، الماركسية والثورة (النظرية والواقع)، ط المركز العالمي لدراسة وأبحاث الكتاب الأخضر، ط١ ١٩٨٥م: ٧.

(٢) سعد عبد القادر حميد، الدوافع السياسية والاقتصادية لثورة ٢٥ يناير في مصر، المجلة السياسية والدولية: ١١٧٢.

٣- الحلم والطموح:

لقد علقت آمال الثوري بتوجهاته، وارتأى في ثورته ملاذًا لكيانه الذي ذاق مرارات الجمود وعناءاته. لقد دجا ليل الاستبداد والجمود، واعتسف الناس طريقهم، حتى جاء الثوري فأنار الدرب، وأزال العتمة، ووضع الآخر على المحجة بذلك الفعل والتغيير الجذري، فقد سطر ذلك الثوري أهدافه ومراميه بدمائه الذكية التي سالت، فخطت معالم حريته، وعبَّدت له سبل الاستقرار والتغيير، فقد أُدْخِل الشعب إلى حلبة المطالبة بالحرية بيد أولئك النواهل من الثوريين، فتجرع كأسها.

لقد طاولت أماني (حسن طلب) أعنة السماء، واغتذى حلمه بحرارة ذلك الأمل المتقد في نفس الثوار، وارتأى فيه سببًا ناجعًا في التغيير المرجو. كانت ريح التغيير قد درجت تارةً بعد أخرى، حتى آذنت بهبوب الرياح في ذلك (الربيع العربي) معلنةً بذلك التحول الجذري في بنية تلك المجتمعات العربية الساكنة الخامدة، يقول طلب[١]:

واسألوا التاريخ.. يذكر في سجلات المواقيت

بأنا من هنا.. من ذلك الميدان

أسقطنا الطواغيت

لقد وجد المد الثوري مدًّا مماثلا في الناحية الأدبية يعضدها، ويأخذ بتلابيبها نحو التحقق والاستمرارية، فلقد مَثَّل الربيع العربي الدعصاء التي خففت الهجير الذي اكتوى به أولئك الثوار بعد أن لفحهم الاستبداد بلظاه، يقول طلب[٢]:

أيها الأحياء: إن زرتم بيومٍ قبرنا

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٩.

(٢) المصدر السابق: ٩..

بشرونا أنه من بعدنا
لم تقم للبغي قامةْ

صفات الثورة:

ارتسمت الثورة في كيان (حسن طلب) في مستهلها ومختتمها عبر مجموعةٍ من الصفات، ولعل من أبرزها:

في مبتدأ الثورة	في ختام الثورة
– شعارها الحرية الغاية.. وهي المبتغى – دينها العدل.. ولا دين لها سواه	– والثورة.. تلك الماكرة قد أنكرت كل بنيها نسيت دم الشهيد.. لم تعد حرية الثوار تعنيها ولا صوت الجموع الهادرةْ أثورة تلك التي قد شهد الميدان؟ أم مناورةْ؟!
شهد	**(غادة المقطم)**

شتات الثورة:

لقد صاحت بتلك النظم المستبدة صيحة الزوال، وأسلمتهم –في معظم الأحايين– إلى سوء المآل، فجاؤوا إلى رُحْب ساحاتها من كل حدب وصوب زرافات ووحدانا، وقد سطروا أمانيهم تحت ستار ليلهم وأحزانهم، ووطأة ماضيهم وحاضرهم، يقول طلب[1]:

وهكذا صار الربيع دعوة تتلى إلى الأحرار

(١) المصدر السابق: ١٢.

للإبحار في مواسمنا

لقد مثلت صيحاتهم وأشعارهم مطيةً ذلولًا لبلوغهم أعنة المجد. لقد زهت الحياة في أعين الثوار، وأيقنوا بحتمية حصول انفراجة تامة بعد ثورتهم، فقد مثلت تلك الثورة تعلةً لقلوبهم، ومسلاةً لهمومهم، وانفراجًا لأوضاعهم، ورواءً لكياناتهم الذابلة من عناء الانتظار، فقد اجتمع أولئك الثوار في فضاء الميدان، وقد ظنوا أن بينهم وبين الحرية المنشودة ليلة قاصدة، فإذا بهم على شفير الهاوية، ينتظرهم الموت في محرابه، يقول مجدي عبد الهادي: (لم يحدث أبدًا أن حققت ثورةٌ واحدةٌ في التاريخ كافة أهدافها دفعةً واحدةً) [١]

إن التغيير الحاصل في بنية المجتمعات جراء الأحداث المفصلية الجسيمة ولاسيما الثورات، لا يتبين أثره بين عشيةٍ وضحاها، وإنما يستلزم قدرًا من الزمن حتى تستوضح الرؤى والأهداف، وتتكشف الحقائق والغايات عن تلك المواقف والشخوص، يقول طه حسين: (الثورة مهما تكن خطيرة، ومهما تكن بالغةً عميقة الأثر في حياة الأفراد والجماعات، لا تغير الأدب فجأةً، ولا تُحَوِّل طبيعة الفن إلا تحويلًا يسيرًا أقرب إلى التكلف منه إلى الفطرة) [٢]

ويطرح (حسن طلب) سؤالًا جوهريًّا عن ماهية تلك الثورة بعد انقضاء فورتها، إذ يقول[٣]:

وكيف قد أخفقت الثورة

أم ليست سوى مظاهرة

---

(١) مجدي عبد الهادي وآخرون، م٢ يناير (التاريخ. الثورة. التأويل)، ط عرب للنشر والتوزيع، مصر، ط١ أبريل ٢-١١م: ٧

(٢) طه حسين، خصام ونقد، ط دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٩ مارس ١٩٧٩م: ١٥٤.

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٨٦.

دبرها جيل الشباب الغاضبين

الباحثين عن مغامرة

أم أنها مؤامرْة

أحكمتها الساسة في الغرب

لكي ينهزم الشرق بغير الحرب.

فالشباب هم عماد التطور والتغيير، يقول توفيق الحكيم: (كل ثورةٍ دليل حيوية، والشباب هو الجزء الحيوي في الجسم، فلا عجب أن يقوم بالثورة الشباب، وقلما تكون هناك ثورة شيوخ) (١)

إن تلك الأسئلة الحائرة التي تبحث لها عن إجابةٍ شافيةٍ تؤكد تخبط أولئك الثوار، وتضارب الرؤى والآراء. لقد تناهى حلم تلك الشعوب العربية التي طالما انتظرت بصيص الأمل والضياء، ورأت في ذلك الحدث الثوري مخلصًا من عذاباتها وآلامها، فلم تنته نفوسهم عن مواصلة أمانيهم في الحرية والعدالة والمساواة، وإن تكسرت أحلامهم على صخرة الواقع المرير والفرقة والتعددية المقيتة التي استحالت إلى جاثومٍ مخيفٍ قابعٍ على صدورهم المحترقة من مرارات الخيبة والأنين، فلقد أثخنت خيبات الربيع العربي جراح أولئك الثوار. يقول طلب(٢):

قالوا: لقد أوشكت الثورة أن تنجح

شئنا.. غير أن الله لم يشأ

ونحن لا نعلم:

هل أصيبت الثورة بالطاعون؟

(١) توفيق الحكيم، ثورة الشباب، ط مكتبة مصر: ١١.

(٢) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٩٨.

أم باليرقان ذلك الميدان قد وبئ؟

لقد اختنقت آمالهم في مهدها، وتكسَّرت أبواقهم، وذهبت أنفسهم هدرًا بعد خريفهم. فلقد افترع الربيع العربي أحلامهم بعد أن اجتث ذلك الخريف أقدامهم اللاتي تجذرت في ميادينهم وساحاتهم الثورية، وانتهب قواهم وطاقاتهم، وآذنهم بسلبٍ بالغٍ تمكن من نفوسهم. إن وجوههم التي أشرقت بضياء الأمل والتغيير قد حثا عليها ذلك الخريف جثوةً من التراب، فانقلبت أبصارهم حسيرةً خاسئةً، يقول طلب[١] :

وقبل أن أودع ابني وابنتي

قلت لزوجتي: تعالي

في سديم هذه الوحشة.. يا رفيقة الرحلة

ليس لي سواك من أنيس

لم ينبت ربيعهم الثوري أزاهير الحرية والمساواة والعدالة، بل حصدوا فيه أشواك الوحشة واليأس والفقد والسلب الذي اجترحته أيدي خريفهم، فلقد أثمر عام ثورتهم أزمنةً ملأى بالشؤم والمحل والجدب. لقد آذن الخريف دوحة أولئك الثوار بالذبول، بعد أن بسقت أمانيهم، وطابت أحلامهم فيها، فلقد غرست تلك العصبة الثورية نبتة الحرية والمواطنة بدمائها، فأوذيت كياناتهم في الغرس والحصاد، يقول طلب[٢]:

لكن صحونا..

فإذا الميدان كالصحراء..

والثوار قد طاحت بهم دوامة الأنواء

(١) المصدر السابق: ١٦٦.

(٢) المصدر السابق: ١٩٨.

والثورة ظلت وحدها كالناقة الدبراء

ترعى ما تبقى من كلأ

واليوم لاقت حتفها

وهذه جثتها في باحة الميدان

إن تلك الميادين التي اكتظت بأجسادهم وتزلزلت بحناجرهم قد صارت بعد خريفهم العربي فراغًا كئيبًا يخترم كياناتهم المعذبة الكسيرة، ويُصَوِّت فيها. لقد كان الفن في تلك الأثناء العسرة بمنزلة الصوى الذي يستمسك به أولئك الهالكون في لجة خريفهم الثوري، والطنب الذي يقيم عمود خيمتهم.

لقد ركض ذلك الحدث الثوري المفصلي الهمم، واستنهض القوى والطاقات من مكمنها، فقد أناءت أوزار الثوار نفوسهم، وأناخت بهم الهموم والظنون، وطوَّفت بهم في مدارات السلب والفناء، ووحشة الماضي وأنين الحاضر، وخالسهم الخسران الذي منوا به، وفت بدوره عضدهم، وأحاط بثورتهم، وأخمد حماستهم. لقد سكن لهيب ثورتهم بعد أن صيرت حماستهم هشيمًا تذروه الرياح. لقد صيرتهم ثورتهم عوانًا مجربين ذوي خبرة بعد أن أدركوا كنه الحقيقة، وخلصوا إلى مُفادها، فقد أخنعتهم مآلات ربيعهم إلى الصمت، واحتبست قواهم وطاقاتهم، وشردت أحلامهم، وأجدبت كياناتهم. لقد مثَّل الربيع في كياناتهم البائسة الجريحة عقبةً كؤودًا أتت على أحلامهم، وشعثت قواهم وطاقاتهم، وأجهزت على كياناتهم بعد أن هبت بربيعهم ريح السموم، وتلبدت سماؤهم بالغيوم، فآذنت حيواتهم بجرحٍ يدوم.

لقد شكَّل عام اندلاع الثورات العربية وما تلاها أزمنة بقعاء، اجتمع فيها على تلك الشعوب خصب الحرية، وجدب المقاومة والتغيير. لقد استحالت تلك السلطة الغاشمة، واستبدت بمقاليد الحكم، وبغت على شعوبها، فاستحقت من وجهة نظر أولئك الثوار أن تلقى مصيرها المحتوم. لقد صدع ذلك الربيع العربي أحلام الآخر اللاثوري، فجرح ماضيهم المفعم بالسلب الذي ما زال يثغب دمًا

وقيحًا، وقد مثلت إنجازات ثورة الربيع بلغةً شحيحةً في كيان الثوري وكذا الآخر، لم تسد رمقهم، ولم تشف غلتهم، فلقد احتبس عنهم بعد اندلاع ثورتهم شعور الأمل والأمان، وانداح الإحساس باليأس والإحباط في نفوسهم بعد أن تمخضت ثورتهم عن تلك السني المتماحلة التي عانوا وطأتها، فقد حملت الثورة جرثومة الموت التي استقرت في رحم التغيير، فأفرزت بدورها أنينًا لا ينقطع مداه، يقول طلب[١] :

ألقى بنا صرف الزمان: خارج الميدان

والثورة.. تلك الماكرة

قد أنكرت كل بنيها

نسيت دم الشهيد.. لم تعد حرية الثوار تعنيها

ولا صوت الجموع الهادره

أثورة تلك التي قد شهد الميدان؟ أم مناورةْ؟

لقد سفع لظى ثورتهم قلوبهم، وأورثها جرحًا غائرًا، فلقد ندَّت أحلام ثورتهم عن الحصول، وآضت جاثومًا مخيفًا يكتم أنفاسهم، فقد كانت ريح ربيعهم ريحًا نكباء أتت على الأخضر الندي من أحلامهم وطموحاتهم، فأيبسته، وأطاحت بثمرة جهودهم، وأضوت قواهم وطاقاتهم. إن ثورتهم النكراء قد أجهضت مطالبهم، ونغصت آمالهم، ونكدت بحوائجهم، وأنقضت حبل قواهم، وصُلِبَت أحلامهم على أبواب ساحاتهم الثورية، وتضعضعت أمانيهم.

لقد كدر عيشهم، ورنق ماء حيواتهم، واصطلت كياناتهم بأوار الشك والسلب الذي بات يغلف كل المفردات من حولهم، بعد مآل السوء والخيبات التي مني بها ربيعهم، ولعل تلك الآمال والطموحات التي منيت بالفشل الذريع قد

(١) المصدر السابق: ١٧٥.

تجذرت لسنواتٍ طوالٍ في كيان العربي الذي أخذ في رسم حلمه على جدران فؤاده وأوردته وفي تلافيف عقله.

لعل تلك الكيانات التي آلت إلى الخيبة قد رزحت طويلًا تحت نير الاستبداد، وعانت من قساواته وويلاته، فأخذت ترسم أحلامها الندية. لقد حملوا كلماتهم كالصليب، وألقوها على أسطر صفحاتهم، وآذنوا بحربٍ ضروسٍ مع تلك القوى المستبدة الغاشمة. لقد استثارت تلك المآلات خبيئة نفوسهم وأقلامهم، فراحوا ينفضونها عن كواهلهم، ويحركون بها ألسنتهم، وقد رفع أولئك الثوار بيارق النصر وقد ضمخوها بدمائهم الطاهرة، فآضت منكسةً بعد مغيب شمس ربيعهم، وقد انتهب الخريف العربي جفان أولئك الثوار التي كانت تسيل حماسةً وفورةً، وكدر ماءها، فهبطوا بعد خريفهم من تلاعهم، وتغرقت بهم السبل، وتحشرجت حناجرهم بأمانيهم التي احتضرت على أفواههم.

لقد طما مرادهم، ونزق معين أحلامهم في غضون ذلك الحدث الثوري، ولكنه سرعان ما أجدب بعد مآل السوء لربيعهم، فنزفت كياناتهم الجريحة في خضم معركتهم، وقد شخصوا بأبصارهم إلى النجح عندما ساعفهم الدهر بذلك الحدث الثوري، فبنوا صروح الآمال السامقة التي سرعان ما اندكت بعد بوار ربيعهم. وقد تقيحت جروحهم الثخينة بعد ذلك المآل السيء الذي منوا به في ثورتهم، وكابدوا الآلام والأوجاع التي أعيت كاهلهم، ورنق ماؤهم بعد أن كان قراحًا في مبدأ ثورتهم، ولم يقلهم ربيعهم من عثرتهم، بل أجهز عليهم، يقول طلب[1] :

وكيف في هنيهةٍ.ز بطعنةٍ واحدةٍ

تنطفئ الثورة والحب معًا!

(١) المصدر السابق: ١٨٦.

لقد التاث وعيهم، وغبرت جروحهم النفسية بعد المآل الوخيم لربيعهم العربي، وأذابهم لهيب شمسهم المحرقة، وابتلعت كياناتهم الصادية ساحات ميادينهم، وآذنت شمس أحلامهم أن تغيب في ضحوات خريفهم البائس بعد أن نكدت حظوظهم، وخاب مسعاهم. فقد لَوَّح الحزن تقاسيمهم، وغبَّر ملامحهم، والتاعت نفوسهم بعد تلك النهايات السوداوية التي منوا بها، فلقد كانت أمانيهم في أيام ربيعهم طلقةً سخيةً، فأضحت بعد مآل خريفهم مقيدة بسلب واقعهم. لقد دشنت تلك العصبة الثائرة ثورة ربيعهم، وهم لا يلوون على شيء، وقد تخلقت طموحاتهم في رحم ثورتهم، وفي غضون صيحاتهم، وجافهم خريفهم بطعناتٍ نافذةٍ في صميم قلوبهم المخلصة، فأجهز على أحلامهم، وجعلها ثاويةً في سراديب النسيان، ومتاهاته، وغياهبه، يقول طلب[١] :

فهل تُرى أخفقتِ الثورة..

آه لو الثائر في ميدانه

كان قد استوعب الدرس

لقد انفجر ذلك السيل الثوري في مدن الربيع العربي بسيلٍ جارفٍ من الرغبات الجادة في التغيير الجذري، ولكنها لم تخصب ما استقرت فيه من البلدان، ولكنها أجدبتها. إن ريح خريفهم كانت عاصفة، فقد أجدبت ثمرة ربيعهم، وقد تناجت الهموم في صدورهم.

لقد دشنت تلك العصبة ثورة ربيعهم لإزاحة علل مجتمعهم وسلبه الذي يرزحون تحت إساره، وقد منوا أنفسهم بحصولها، فما أنجز ربيعهم وعده، وما

(١) المصدر السابق: ١٨٨.

كان دواؤه ناجعًا لأوجاعهم وأوصابهم التي عانوها، وهم على شفير الهلاك فيها، يقول طلب[١] :

ولستُ أدري ما الذي أقوله اليوم عن الثورةْ

بل عن بيضةٍ واعدةٍ في عشها..

وانكسرت قبل أوان الفقس!

لقد أصمت خريفهم آمالهم وطموحهم، ولكنه لم يصمت لسان (حسن طلب) وعصبته وأقلامهم التي راحت تدفق بشعرٍ يفيض أنينًا وحيرةً بعد أن اصطلوا بلهيب خريفهم، وقد عسر نتاج ربيعهم الذي أملوه، وأسن ماؤهم. لقد كانت تلك العصبة الثائرة يقنة ببلوغهم، فقد أينعت ثمرة ربيعهم وطابت وحان قطافها، ولكنها ليلهم بعد مآل ربيعهم صار أيهمًا، لا يدري فيه السالك منجى ولا مسلكًا. لقد خضل نبت ربيعهم الثوري بدمائهم الزكية التي خضبت ميادينهم، فجاءت ريح خريفهم فاجتثتها.

لقد شكلت مصر جماعا لتلك لحركات الثورية حددت منعطفاتها، وشكلت مضامينها وأبعادها، وأرست أسسها ومنطلقاتها، فمصر قد مثلت في العقل الجمعي العربي في غضون تلك الثورة واسطة العقد الذي يعقد عليه الأمل في جمع شمل العرب على كلمة سواء، ومتوكأ قويمًا صلدًا للخروج من أسر واقعهم، فذلك السيل الثوري الجارف قد وحَّد بدوره بين تلك الأخلاط المتباينة في مشاربها.

لقد نضَّر الربيع الثوري أحلامهم، فانقلبت أمانيهم في خريفهم البائس هباءً منثورًا، ونضحت نفوسهم في غضون تلك التجرِبة بالأمل واليأس معًا، فقد نضا الخريف الكئيب تلك الغلالة الشفيفة عن الربيع الثوري، وأبان عن مقاصده

(١) المصدر السابق: ١٨٨.

الأصيلة. لقد انتضى أولئك الثوار أسيافهم، فإذا بها قد صدئت في أغمادها من أثر ذلك السلب الذي يطوقهم، ويقوض قواهم وطاقاتهم وقدراتهم.

لقد جاء خريف أولئك الشعراء الثوار، فاندك الصرح الشاهق لأمانيهم وأحلامهم، ولم يقو على الصمود أمام ريح خريفهم المسمومة. لقد التاعت نفوسهم من تلك المآلات السوداوية لخريفهم التعس، فراحت أشعارهم تقطر ألمًا وحسرةً وفجيعةً على تلك النهايات المأساوية التي آلوا إليها، فقد كانوا قاب قوسين أو أدنى من أهدافهم، لقد تلفت جهودهم المضنية ومساعيهم الدؤوبة بعد خريفهم التاعس بعد أن ثل خريفهم التاعس عرش أمانيهم، ودكَّ صروح طموحاتهم الشاهقة، يقول طلب عن الثورة التي تمثلها شخصية (شهد)[١]

كم كانتا بريئتين مثل طفلتين..

حتى أتت الأغراض بالأمراضِ تترَى..

فإذا كلتاهما صارت تعاني الآن

من أعراض سن اليأس!

لقد شب الثوري عن الطوق، وانتضى سيفه ليتحرر من براثن ذلك الحاكم المستبد، فقد تلاطمت أمواج ذلك السيل الثوري في خريف الثوار التعس، وتكسرت أشرعتهم التي كان ملؤها الأمل والحماسة والفورة. لقد آداهم خريفهم التعس بنفحات ريح السموم، وقد جادوا بأنفسهم بلوغًا للحرية والمواطنة الحقة التي تمنوها، يقول طلب[٢]:

ما كان للثورة أن تنجح يومًا

ثم تستمر في طريقها

(١) المصدر السابق ١٨٨.

(٢) المصدر السابق: ١٩٩.

مادام فينا المرجفون والمنافقون

والذين لم يصدقوا بعد النبأ!

لقد تلبدت ساحاتهم وميادينهم بدمائهم التي رووا بها نبت ربيعهم الثوري، لقد مثَّل الثوري في العقل الجمعي للآخر خير ردءٍ له في مسعاه نحو الحرية والمواطنة الجادة والتغيير الواجب في مجتمعه.

لقد أمضت (حسن طلب) لواعج الشجو والأنين التي عاناها بعد خريفه التعس، فقر قلبه بعد مبتدأ الربيع الثوري، وظنه إيذانًا بخصبٍ، ولكن خريفه البائس قد آذنه بحسرةٍ وفجيعةٍ في دماء الشهداء. قد كانت مروج الربيع الثوري في مبتداه نضيرة، فجاء الخريف فأحالها هشيمًا. لقد نكدت حظوظ تلك العصبة الشاعرة في غضون تجربتهم الثورية، وانقلب معظمهم على أعقابهم خائبين يعانون ويلات الحسرة والتفجع والأسى، فقد غارت الشهب النيرات من سماء خريفهم التعس، وأفلت نجومهم، وآذنت شمس حيواتهم وآمالهم بالمغيب، فلقد محَّت تلك التجربة كياناتهم.

لقد مخرت سفينة (حسن طلب) في غضون ربيعه الثوري، وجاء خريفه التعس، فتكسرت أشرعته على صخرة واقعه. تطامنت نفسه في وهاد ربيعه، فإذا بخريفه التعس قد أسلمه إلى تلك الفجاج الوعرة المخضبة بالدماء واليأس. وأورث قلوب الثوار وجيبًا لا ينقطع، فالثورة ليست مسؤولة عن تبعة سقوطها، والعار الذي جللها، بل يحمل أوزارها أولئك المتخاذلون المنافقون، يقول طلب[1]:

يا أيها السادة: لا تتهموا الثورة زورًا

لا تقولوا: إنها ماتت

وإن نارها خبت.. ونورها انطفأ

(١) المصدر السابق: ٢٠٠.

فهي –وإن لم تعرفوها كلكم– تعرفكم
تعرف كل من بها هزأ
تعرف من أحبها.. والأبتر الذي شنأ

فالزمان لم يجر على الثورة، ولكن تلك النفوس الكسيحة الآسنة التي استطالت في عمايتها هي التي أوردتها موارد الهلاك، يقول طلب عن الثورة [١]:

تعرف من مزَّق عنها ثوبها عمدًا.. فَعَرَّاها
ومن رفأ
تعرف من خان.. ومن هان..
ومن ظل على إيمانه في صفها
ملوحا بسيفها

لقد سقطت أرواح الثوار الأنقياء الأبرياء هدورًا بعد مآل خريفهم البائس. وقد غلهم خريفهم، ووضع على أفواههم فدامًا صلدًا، فما استطاعوا مضيًّا في حدثهم الثوري، وقد سغبت كيانات تلك العصبة في ربيعهم البائس الشقي، وحاق بهم الموت، وأحدقت بهم المهالك، وقد كانت تصدح بالقوة والفورة في غضون ذلك الحدث الثوري. لقد وحد ربيعهم شعارهم الثوري، وجاء خريفهم فلجبت أصواتهم التي أترعت بثنائية (الأمل/ اليأس) بعد أن أثمرت ثورتهم أنينًا وحسرةً وفقدًا، وجعل أولئك الثوار أنفسهم عرضة للموت وصولًا للحرية المنشودة. وقد أمطروا بطِّل الحرية فظنوه غيثًا مريعًا.

لقد حسبت تلك العصبة الثائرة أنها قد بلغت قلل الحرية والقوة في التعبير والتغيير، فإذا بها تتعلق بأذنابها فحسب بعد ربيعهم الجائح، فلم ينعم أولئك الثوار بشذى ربيعهم، وإنما عانوا من أوضار خريفهم بعد أن أوردهم موردًا آسنًا،

(١) المصدر السابق: ٢٠١.

وطعنهم ربيعهم في عجلةٍ، فأثخن جراحاتهم، وأنهك قواهم، وأجهز على أحلامهم. لقد ذهب خريفهم الكئيب بغضارة أحلامهم وأمانيهم، وأضحت جراحاتهم جياشة بالدم واليأس الذي تفجر من شراييهم وقلوبهم الدامية. لقد نغص خريفهم البائس الكئيب أمانيهم، وكدَّر مرادهم الذي ظلوا يأملونه ليومهم المفعم بالوحشة والسلب والأنين، فقلوبهم النابضة التي حطَّمَت جُدُر اليأس والاستبداد الغاشم قد آلت بعد خريفهم إلى كهوف. واستحال جد أولئك الثوار إلى جدبٍ عظيمٍ يؤرق كياناتهم السخية بالروح وصولًا للحرية الحقة.وقد رنقت أحلامهم بعد بوار ثورتهم، وكدرت نفوسهم. وانتهبتهم الظنون بعد خريفهم العربي، وأسلمت قيادهم إلى سبيلٍ مأفونٍ لا يتبينون فيه طريقهم، يقول طلب(١)

شهد والثورة: أختان شقيقتان.. تاهتا معًا

لم أرَ في طول حياتي كلها

قصة حبٍّ تنتهي بمثل هذا البؤس!

لقد جعل الخريف العربي من كياناتهم وعقولهم ثكنات للوساوس والسلب الذي يعتمل بقوةٍ في نفوسهم، فقد آضت قلوبهم اللهيفة على الحرية والمواطنة منكسرةً حسيرةً بعد أن أذيقت ويلات خريفهم التعس، ورمدت عيونهم الطامحة بلهيب ثورتهم. إن ثورتهم قد استحالت إلى أنينٍ جارفٍ، وسكونٍ طاغٍ مترعٍ بالألم، وقد آضت تلك المهارج الثورية المترعة بالأمل والإيجاب مذابح قُدِّم عليها هؤلاء المنذورين، وقد تسبب خريفهم التعس في استقالتهم من مهمة سدانة أوطانهم. إن تلك العذابات الوخيمة التي عانوا ويلاتها لم تنأ بهم عن محرابهم الثوري الذي ضحوا بدمائهم وأرواحهم فيه، لقد صاروا نزعًا في أوطانهم بعد خريفهم البائس، وقد عانوا ويلات الاغتراب النفسي، لقد أدلجوا في ليلهم البهيم

(١) المصدر السابق: ١٩٢ .

لقد صارت تلك الثورة نبعهم الثر الذي يغترفون منه فيض أمانيهم، ودك ذلك الخريف التعس أمالهم وحماستهم، وأحالها هباءً منثورًا تذروه رياح الفرقة واليأس. لقد أجدب الخريف آمالهم، ولكنه –في الوقت نفسه– قد أخصب إبداعهم.

لقد اعتركت الأفكار في رؤوسهم المثقلة بالرغبة والفورة والحماسة، فأسلمت العصبة الشاعرة قياد أنفسهم إلى الشعر، واحتموا بذماره، وأفرغوا ما في جعبة نفوسهم القلقة من أنينٍ على محراب صفحات دواوينهم. لقد تعددت أوجه الثورة ما بين وجهٍ عبوسٍ شاحبٍ كئيبٍ أبان عنه خريفهم التعس، ووجهٍ مشرقٍ نضرٍ يحمل ماء الحياة ونسماتها لأرزاحهم الظمأى للحرية والعدالة والمواطنة الحقة، ولكنه سرعان ما انطمست ملامحه المشرقة بعد زوال ضياء ربيعهم. لقد استحال ربيعهم النضر إلى جهنم التي تلفحهم بهجيرها، ولكنهم على الرغم من تلك القساوة والمعاناة الشديدة راحوا يرتجون أزاهير حريتهم، فقد نزح أولئك الثوار من ميادينهم، ولكنهم لم يتزحزحوا عن أمانيهم وطلابهم، فما إن شرع أولئك الثوار في مباشرة حدثهم الجلل حتى قلب لهم خريفهم التاعس ظهر المجن، وأحال أزاهير ثورتهم إلى حطامٍ يابسٍ تذروه رياح اليأس.

لقد هدم خريفهم التعس أروقة أحلامهم الباسقات اللاتي استظلوا في رحابها في بداية ربيعهم الثوري، وانفتحت بهم مسارب خريفهم الشقي على أوديةٍ مهلكةٍ، وتيهٍ، وموارد آسنة، وانتفضت نفوسهم الأبية لترفع عن صدورها ذلك الأسر الغاشم الذي يطوقها ويسحق كياناتها وأحلامها، فإذا به يتغلغل في ثنايا نفوسهم. لقد أثمرت قفاره بؤسًا ودمًا وخرابًا، وقد همدت قواهم في غضون ربيعهم التعس، ودفق فيها خريفهم التعس ماءً آينًا، فخارت قواهم، وانحل عزمهم، بعد أن كان قويًّا مستحكمًا، يقول طلب[١]

(١) المصدر السابق: ١٩٢.

وما سمعتُ مرةً عن ثورةٍ

صادفها من قبل هذا النحس

لقد أسقط خريفهم البائس التعس أوراق ربيعهم الندية بعد أن جفت على أغصانها، فجعل أولئك الثوار القلوب مأوى لها، ولم تذهب سدى بفعل ريح خريفهم المسمومة، لعلها تنبت في غدهم أملًا أخضرًا جديدًا يرتوي من ذكرى الحدث المفصلي. إن الشرر الذي أشعل بدوره ثورة ربيعهم قد بات يحرق أفئدة أولئك الثوار. لقد بات في دوحة ربيعهم الثوري جحيما مستعرا أتى على الأخضر واليابس من آمالهم وطموحاتهم وإرادتهم، يقول طلب[1]

ويا لها قصة حبّ خلَّفَتْ ما خلَّفَتْ

من ذكرياتٍ موجعاتٍ مخزياتٍ.. تستحق الكنس.

لقد أيقظ ربيعهم العربي أرواحهم وكياناتهم من سباتها الطويل، ومن غفلتها، ولكنه قد عاد وأخمل قواهم وأباد طاقاتهم. لقد آدهم طول أمانيهم في غضون معاناتهم من استبداد تلك القوى الغاشمة المستبدة، وبرحت بهم أشواقهم للحرية والعدالة والمساواة والمواطنة التي طالما تمنوها.

إن صحو ربيعهم الثوري قد استحال إلى غيومٍ كثيفةٍ شاحبةٍ تحجب أشعة الحرية عن أوطانهم التي تئن من وطأة الاستبداد والفساد الغاشم، فجراحهم العميقة التي أثخنها خريفهم التعس لم تلتئم أبدا، وقد باتت تئن من سوداوية المصير الذي يتخطفهم، ويحصد أعمارهم حصدًا، فلقد ارتفعت بهم أحلامهم وحماستهم إلى أعنة السماء، حتى جاء خريفهم، وأسلمهم إلى مضيق السبل، وبلغ بهم كل مبلغٍ في الجهد والعناء، وأفرغ جعبتهم من سهامها بعد أن تكسرت على أعتاب صخرات واقعهم المرير، وأبلغهم إلى درك الجحيم.

---

(١) المصدر السابق: ١٩٢.

لقد تناهى في نفوسهم الهم والحزن بعد تلك المآلات الوخيمة لخريفهم التعس، وتبالغ فيهم السلب الذي قوض كياناتهم، وأقض مضاجعهم بعد أن صير خريفهم الشقي حدائق أحلامهم الغناء بلقعًا، وأحال خصب كياناتهم إلى جدبٍ مخيفٍ، وقد ظن أولئك الثوار أن قطوف ربيعهم دانيةً يانعةً، فإذا بها قد عطبت على أغصانها قبل أن يجتنوها. لقد كانت ريح خريفهم عاتية، فاقتلعت أحلامهم من جذورها، وطوحت به في مدارات الجمود والنسيان. لقد أضحت تلك العصبة الثائرة مرخصةً لدمائهم وصولًا للحرية، ولم تعلم تلك العصبة الشاعرة أن مخبوء خريفهم يحمل الألم الدفين والتوجع والحسرة والسلب المخيف الذي يدوي في فضاءاتهم وأرواحهم. لقد كانت تلك الميادين مشرعة للحرية، وقد أضحت بعد خريفهم مثوًى للوحشة والأنين، ومقبرةً لأحلامهم، فقد دحرهم خريفهم الثوري، وضاعت أمانيهم، وتبددت ظلال ربيعهم الثوري، وصاروا يعانون هجير خريفه القاسي بعد أن اعتمل اليأس والحزن في نفوسهم المكلومة.

لقد همت ديمة سمائهم بوابلٍ من الرصاص، فما استيأسوا، أو تراجعوا أملًا في الحرية، ورغبةً في التغير. يقول طلب[١]:

لن يرجع الثوار عن أهدافهم

مهما يكن

إن وعورة السبيل للحرية المبتغاة لم تصد أولئك الثوار عن المطالبة بها، وبذل أرواحهم فداءً لها، فقد استعذبوا الموت وصولًا إليها.

لقد بعث الأمل من طويل رقاد في مبتدأ ربيعهم الثوري، وثواه خريفهم في قبوٍ مخيفٍ، فقد أضحى غل يأسهم الذي تملك زمام نفوسهم الثائرة صلدًا عنيدًا لا يضاهيه قيدٌ في حيواتهم، فقد انحبست أحلامهم في قبو كياناتهم المعتمة، وتفلت

(١) المصدر السابق: ٤٢.

الأمل من بين أيديهم، وانطوت نفوسهم على يأسٍ رهيبٍ. إن صيحاتهم الفتية التي كانوا يزلزلون بها ساحاتهم وميادينهم، ويتلونها على مسامع الدهر والقدر في مبتدأ ربيعهم، قد صاروا الآن يتهجون أحرفها، وسيفهم الذي أشهروه في وجه الفساد الغاشم في مفتتح ربيعهم قد عاد يصدأ من جديدٍ في غمده في خريفهم البائس الكئيب، وقد انداح فيه شعورٌ جارفٌ بالضعف، والهزيمة، واليأس، والمرارة، ولم يعد نبت ربيعهم يهتز انتشاء بالحرية والتغيير، بل أترعت الأشياء بعد خريفهم التعس بشعورٍ جارفٍ بالثقل والوطأة، وقيدت أنفسهم بأصفاد، وخبا شعاع الضياء في أرواحهم، فطغت عليها ظلمات اليأس، ومرارة السقوط.

لقد خارت قواهم الثورية بعد خريفهم التعس، وانبت حبل آمالهم، وتزعزع صمودهم، فلقد كانت أعناقهم طامحةً إلى المواطنة إبان ربيعهم الثوري، فصارت كياناتهم المأزومة طافحة بأنينٍ جارفٍ يعتمل في حنايا قلوبهم وصدورهم. وقد أعاد الإنسان العربي إبان ثورة ربيعه سؤالاته الوجودية المترعة بالحيرة والأنين والشتات، يقول طلب[1]:

عجبت للثورة:

كيف يا ترى تقوم في الميدان..

وهي بعد لم تقم بداخل النفوس!

لقد سجت الدنيا في أعينهم بعدما آض خريفهم التعس إلى البوار، واستحال وطنهم إلى الدمار، وقد مثلت الثورة في عقولهم وكياناتهم حركةً تأسيسيةً عظيمة الشأو والخطر في سلم تحقيق أحلامهم وطموحهم الإنساني، فجاء خريفهم البائس، فانقضت أركانها ودعائمها، وانقلبت على أعقابها.

(١) المصدر السابق : ١٥٧.

لقد جهد خريفهم التعس في مسخ تلك الطموحات والآمال الصلدة إبان ربيعهم الثوري التي أوشكت أن تخور في خريفهم، وقد راحوا يغزلون من أطياف ربيعهم أمانيهم الزاهية المشربة بالفتوة والحماسة والألق، فجاء خريفهم البائس على عجلٍ ليحيل جدائل أحلامهم أنكاثًا مهترئةً هشةً.

لقد جرع هؤلاء الثوار كأسًا مترعةً بالحبب في مفتتح ربيعهم، وقد صاروا يجرعون كأسًا من صاب وأشواك في خريفهم البائس، فلقد تجرد ربيعهم من غلالة الزيف واليأس الذي دثره في مبتداه، وقد جالت في خواطرهم في غضون خريفهم أفكارٌ سوداويةٌ توغل في الوحشة والكآبة واليأس تارة، والحماسة والأمل المتجدد واليأس تارة أخرى.

لقد أضحت تلك العصبة كالةً من السلب الذي يعتورها، والعناء الذي تجشمته وصولا لمبتغاها، وقد وقعوا في ربقته، فقد باتت مصفودةً بأغلالٍ من حديدٍ تشل قواهم وطاقاتهم بعد أن أطلق ربيعهم في مبتداه أصواتهم، وحرَّر كياناتهم من أسرها.

إن تلك السحب الناصعة التي كللت ربيعهم قد أضحت غيومًا متراكمةً متشحةً بالسواد، فقد ظنوا أن ربيعهم قد حان ليضمد جراحهم، فإذا به يثخنها، ويجهز عليهم، وقد انحبست قواهم وطاقاتهم وانبجست عين شاعريتهم، فلقد كانت جعبتهم في بداية ثورتهم ملأى بالأمل والرجاء والإشراق، فأضحت خالية الوفاض. إن فعل إبداعهم قد كان ناجعًا في إخراج حشاشة قلوبهم على ضفاف الحقيقة التي غيمتها مآلات خريفهم التي عطبت من الآلام والأوجاع، وانسحقت تلك وطأة الاستبداد.

إن موجة أمانيهم قد ارتفعت أمام ذلك المد الثوري، وتطامنت إلى غايتها القصوى، وثوب أمانيهم قد أضحى خلقًا في غضون هذه الأحايين العسرة، فقد تبدى عوار الحقيقة بعد خريفهم في صورةٍ شنعاء، وقد تجردت من ربقة الظنون، وظهرت بملامح الشيطان. إن الهالة القزحية الوضاءة التي تبدت في سماء

ربيعهم قد استحالت إلى ضبابٍ معتمٍ يخيم عليه تلك الظلال السوداوية الكئيبة. لقد ارتأى (حسن طلب) أن يُقصي تلك المآلات السوداوية من خلال فعل الإبداع في متاهات النسيان وغياهبه، ويقبرها في سراديبه.

لقد أورثهم خريفهم البائس موجدةً على ربيعهم، وانحدروا في غضون خريفهم إلى درك اليأس والألم والشقاء، فإذا بأجنحتهم قد تكسرت بعد أن رفت في باحات الميادين الثوري، ولكنها ما خضعت أبدا لذلة أو هوان ينتظرها. وأقعدهم خريفهم الكئيب عن مواصلة هدفهم، ولكن أحلامهم ما هجعت في صدورهم، فقد ظل الأمل يعتمل في كياناتهم المتوهجة، لقد ارتأوا في ربيعهم العربي باعثًا للحرية والعدالة والمواطنة الحقة التي رجوها، فإذا به يقبر أمانيهم وحماستهم في قبوٍ مظلمٍ عميقٍ، ويحيطه بسياجٍ من اليأس.

لقد نفث ربيعهم العربي رياح السموم التي أطافت بهم، وأعيت حيلتهم، وقيدت عزيمتهم، وقوضت طاقاتهم، فاخترقت كياناتهم الغضة بلهب خريفهم، واكتوت أحلامهم الندية المورقة، ومحلت كياناتهم الندية المورقة، وقد أقعدهم خريفهم البائس الشجي عن وثبتهم، وقوض صولتهم، وشتت أهدافهم وبدد حلمهم، وقد فاح أريج ربيعهم في بدايته بنسمات الحرية والتغيير الندية فما لبثوا حتى جاء خريفهم، وأحالها إلى دخان مسموم، يقول طلب[١]

ما أشرقت في الفجر

حتى انخطفت قبل غروب الشمس!

لقد انتفت النهية المرجوة لربيعهم، ولكن ذلك الخريف التعس البائس الشقي لم يقض بدوره على جرثومة أحلامهم، ولم يجتث أرومتهم، ولم يستأصل شأفة طاقاتهم، ولم يخمد جذوة حماستهم.

(١) المصدر السابق: ١٩٣.

لقد أعادهم خريفهم البائس القهقرى، وأورث قلوبهم غربةً قاسيةً قاصمةً لأحلامهم، فقد بسق نبت ربيعهم في مبتداه، فنكب برياح خريفهم، وانصهرت كياناتهم في بوتقة ذلك الحدث الثوري المهيب، وأعيد تشكيل طموحاتهم وآمالهم.

لقد امتاحت كياناتهم أحلام الحرية والمواطنة الحقة من بئرٍ بديةٍ، ولكنها عكرت بمآلات خريفهم البائس الكئيب. فقد أصعدوا في أحلامهم وآمالهم. وقد تطاولت أعناقهم، وجاوزت هممهم أعنة السماء، فإذا بها قد انتهبتها الرعود، وكسرتها رياح البؤس واليأس. لقد فاحت أزهار ربيعهم البائس بشذى الموت الذى حصد أعمارهم، وأطاح بأحلامهم، وترنحت رؤوسهم من رائحته التي أضحت تزكم أنوفهم، وقد ظنوا أشجارهم في ربيعهم الثوري وارفة، فإذا بها قد سقطت أوراقها في خريفهم البائس النكد، فلقد كان نبت أولئك الثوار يهتز من ريه. لقد ظن أولئك الثوار في ربيعهم بردًا وسلامًا تستشفي به أكبادهم وأنفسهم المتعبة من طول العناء، فإذا بهم يصطلون بأواره ولفحه وشظاه، وقد حسبوا أنفسهم على أعتاب نعيمهم المنتظر، فإذا هم على شفا حفرةٍ من الجحيم المستعر. لقد كان الثوار هانئين منعمين تحت ظلة ربيعهم الثوري، قبل أن يستحيل نارًا تصطلي بها كياناتهم وأرواحهم، وقد ارتأوا في حدثهم الثوري المفصلي مؤاتاةً نادرةً قلما يجود بها الزمان، ولكن ربيعهم البائس قد أهلكها، وأحالها إلى بوار. لقد أذَّن الثوري التونسي في منارته بالتغيير الحتمي العاجل، فلبته على فورها جموع العرب على اختلاف مشاربها، وقد صمَّت آذانها عن تلك السلطات الغاشمة المستبدة،

أسباب تخبط الثورة:

١ – الفساد:

إن ثورة الربيع العربي كانت حُبلى بأحلامٍ عريضةٍ، وأمانٍ طوال، قد نمت واغتذت من قلب كل إنسانٍ عربيٍّ حلم بالتغيير، وبات ينتظر غدًا أفضل، وهو يتفيأ ظلال الحرية والديموقراطية والمساواة والعدالة، ولكن تلك الأحلام الثورية قد

أجهضت في غير موطنٍ، وآضت جاثومًا يرزح على القلوب والنفوس الثكلى، المعذبة بخيباتها.

إن ذلك الخوار والبوار الذي أصاب الثورة بعدما استعرت في غير موضعٍ، وتلك الأصفاد التي قوَّضت نماء ذلك الفعل الجلل، قد ردها (حسن طلب) إلى الجهالة والفساد. إن ذلك القهر الذي غشي النفوس بعد مآل السوء للخريف العربي قد طاول أثره الثوري الذي اغتالته خيبة الأمل لانفضاض ذلك الحلم، وأطاحت به في سراديب الانتظار الممض الذي أضحى مفروضًا عليه. إن تلك العصبة المبدعة ما ثبطت عزيمتهم، وما فترت قوتهم، وما اختل إيمانهم بتلك القوى الثورية التي تفجرت في نفوسهم وكياناتهم.

لقد ارتفعت بأولئك الثوار أحلامهم إلى أعنة السماء، وقد حلَّقُوا حول ذرى الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية في ربيعهم الثوري، فإذا بأجنحتهم قد تكسرت، وهاموا في صحرائهم التي أجدبها اليأس، والنفاق، والخوف، والإذعان، وتقديس الطغاة الغاشمين، ليغتال خريفهم ربيع ثورتهم بسبب أولئك الفاسدين الجبناء، فالثورة براء منهم، ولن تحمل أوزارهم، وغدا يلفظ الميدان أثقالهم، وستقطع جهيزة الثوار قول كل خطيب بالباطل، فلن يظل السلب مسيطرًا على مفردات ذلك المشهد الثوري، فغدًا يحمل الهدهد بشائر النصر لينقشع ذلك المآل السوداوي المأساوي البائس لثورتهم، وينقضي ذلك الشعور الطاغ الجارف بالفشل والخسارة والبوار.

لقد حلَّ موقف الثوري أثناء تلك الثورات وثاقهم، وأزال عجمة مواقفهم ورغباتهم، وكسر الطوق عن حناجرهم التي ألجمها الصمت.

إن شدوهم العذب الشجي الندي في مبتدأ ثورتهم قد استحال بفعل أولئك الغاشمين إلى شجوٍ كئيبٍ حزينٍ، وأنينٍ جارفٍ يهتف بهم، وقد صاروا يرجعونه في صدورهم المكلومة من تلك النهايات المأساوية. إن ذلك المآل المأساوي البائس لثورتهم قد انفتح بهم على شعور طاغٍ بالاغتراب النفسي.

لقد آذن طود الاستبداد والطغيان في مختلف البلدان العربية بالانهيار والزوال، وأفلت شمسه، وخبا نجمه، معلنًا بدء عهدٍ جديدٍ من التاريخ. ولم يمثل الموت لأولئك الثوار منهاةً لهم عن سبل التقدم في ذلك المشروع الثوري، فقد أناخوا في تلك الميادين التي ارتجت بصيحاتهم وقد طاولت أعنة السماء، وزلزلوا الأرض تحت أقدامهم، ولم يناوش الثائر العربي قوى الاستبداد الغاشمة، وإنما اندفع كالسهم المصيب لا يلوي على شيء دون هدفه، يطلق صيحاتٍ مدويةً، وراح يقدم نفسه فداءً على مذبح الثورة المجيدة.

لقد جعلت الثورة من كياناتهم المستكنة بين أضلعهم مرمًى لرصاص القوى السياسية الغاشمة، وقد نقَّت الثورة قلوب أولئك الثوار من خبث مخاوفهم من تلك السلطة الغاشمة المستبدة، وحررتهم من إسار قيودهم.

٢- تعدد القوى وتضارب المصالح:

لقد مثلت الثورة في أذهان الثوريين واحةً خصيبةً يلقون برحالهم في فيء ظلالها الوافرة، وقد بلغوا في مبدأ ثورتهم درك آمالهم وطموحاتهم في تغيير تلك القوى السياسية الغاشمة التي غيبت إرادتهم ورؤاهم، وآلوا على أنفسهم التغيير الحتمي الذي طالما انتظروه.

لكن ذلك الحدث الثوري قد أصابهم في منتهاه بطعناتٍ دراكًا نافذةً إلى سويداء قلوبهم، قضت بدورها على طموحاتهم وتنكرت لرغباتهم. فقد غبرت جروحهم غبرًا شديدًا بعدما آلت الثورة إلى مآل الخيبة والسوء نتيجة تشعب الفرق والأحزاب، وتضارب أغراضها ومصالحها، فانتكست قوى الثوريين، وطاحت أحلامهم، وغربت شمس آمالهم، وما انقشع ضبابهم، يقول طلب[١]:

لو فئة عن فئة ترضى

(١) المصدر السابق: ١٥١.

إلى أن يحكم العقل..
لكي يعتدل الميزان في الميدان..
حتى يستريح الشهداء في الضريح..
أو تقر أعين الأحياء بالنصر الصريح
دون أن تدب فيهم فتنة راقدة
تأتي عليهم
فإذا الثورة في ميدانها: مفقودة فاقدة!

تقول سمر الديوب: (للثنائية –إذن–تأثير قوي في الصراع، واستمرار الحياة على الأرض، وتُظهر الثنائية منظومة فكرية فلسفية حياتية متكاملة، وينبني على أساس الثنائية الإيقاع الثنائي للعالم) (١)

لقد كان شأوهم في مبدأ الثورة بعيدًا، وقد قصر باعهم بعد ما لاقوه من مآلات الخيبة والزوال لآمالهم ورؤاهم وطموحاتهم. لقد مستهم الثورة بنارها، فما انقبضوا، بل راحوا يصولون في ميادينهم كالأسد المستنفرة، ولكنها آذتهم في منتهاها بأوارها ولظاها المستعر الذي طاول قلوبهم المترعة بالأمل، فأحالها إلى هشيمٍ ذرته ريح شؤمٍ، يقول طلب(٢):

عشرون إسلامًا هنا
وعشر ثوراتٍ رأيت الآن في الميدان
لو قد كان إسلامان... أو لو ثورة واحدة

لقد مثَّل ذلك الميدان الأداة الفاعلة لإيجاد مسارب الحرية والعدالة والديموقراطية، وتذويب الفوارق، والوئام بين الفرق والأحزاب المتباينة، والرهان

(١) سمر الديوب، الثنائيات الضدية: ٩

(٢) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٤٧.

على المستقبل الناجع الذي ستلتمع فيه أبرق رؤاهم وفلسفتهم، وستنهض فيه أحلامهم من سبات ماضيها وترهات حاضرها الذي حشد عليهم الهموم، يقول طلب[١]:

لو رؤية ناقدة

توجه الثوار في الميدان

كي لا يخطف الثورة من أصحابها:

أعداؤها

لقد مثَّل لهم تعاونهم وشيجةً مع مستقبلهم المفقود، وضمانةً فاعلةً لتجاوز حدود قدراتهم وحبس أصواتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن تفرقوا، وتباينت أغراضهم ومطالبهم.

صيحات الثورة:

لقد وقفت بالثوار تلك الصيحات المدوية على شفار الثورات، وأناخت بهم في ظلل التغيير، وطوحت استكاناتهم وجمودهم بعيدًا، تقول ناهدة حسين علي الأسدي: (صورة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي انعكست بشكلٍ واضحٍ وملموسٍ في شعارات الثوار ومطالبهم) [٢] لقد جعلت صيحات أولئك الثوار من التغيير سابلةً كثر سالكوها، حتى ارتفعت طموحاتهم، وتطامنت مخاوفهم من أوضاعهم السلبية المتمكنة في أنحاء وطنهم العربي.

لعل تلك الحناجر التي اختنقت برفض الطغيان والاستبداد قد آن لها أن تطلق صيحاتها لتنطلق إلى أعنة السماء. إن صيحاتهم الثورية المدوية قد آضت حينها في أسماعهم أغاريد عذبة، وترانيم سماوية تفيض سحرًا وفاعلية، إن تلك

(١) المصدر السابق: ١٥٠.

(٢) ناهدة حسين علي الأسدي، ربيع الثورات العربية (أسبابه وتحولاته)، ط دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ٢٠١٥م: ٢٦.

المعارك الضروس التي خاضوها وصولًا للحرية والمواطنة الحقة مثلت أنشودة عذبة الألحان تلاها أولئك الثوار على أسماع زمانهم، يقول طلب[١]:

كان الشباب يهتفون بالشعارات

كما يرتل المقرئ بالآيات

يقول يسري عبد الله: (ويحضر الشعار السياسي بقوةٍ في الديوان، ويعد أحد الآليات التي اعتمدها الشاعر في التعبير الجمالي عن الثورة) [٢]

إن صيحاتهم كانت بمنزلة أزمَّةٍ قادت أولئك المستبدين إلى دائرة الخزي والإقصاء، وأسدلت عليهم أستار النسيان، ولم تجعل بينهم وبين أولئك الثوار من جُنَنٍ يتقونهم بها. لقد مثَّل ذلك الحدث الثوري مرعًى خصيبًا وينبوعًا ثرًّا ينهلون منه الأمل في غدهم، والصبر على آلامهم. فلقد اقتات الحلم العربي على ذلك الحدث الثوري، وأخذ في النماء والرواء بدماء أولئك الثوار.

لقد شكلت صيحاتهم الثورية في كياناتهم الملتهبة الثائرة تعويذة البقاء، وأيقونة الحياة التي تناهض سبل الاقتلاع التي عانوها من تلك السلطات الغاشمة، فالثوار قد زلزلوا أرض ميدانهم بصيحاتهم، فأخرجت الأرض أثقال ماضيها، ولفظت فاجرها وعاصيها.

لقد ارتد صدى صيحاتهم الفتية التي كانت تهز أركان ميادينهم وساحاتهم الثورية هسيسًا يملؤه التفجع والألم والحسرة. لقد استحالت تلك الميادين الرحيبة إلى مضايق وعرة بعد خريفهم التعس، وانكسر شعاع الضياء.

إن صيحاتهم التي زلزلت ربوع ميدانهم قد مثلت في كياناتهم زقزقات وشقشقات، وتحول الصخب إلى ترانيم وابتهالات تهدهد وجدانهم، فصيحاتهم

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٧٥.

(٢) يسري عبد الله، جدل الشعر والثورة في شعر حسن طلب، مجلة الفيصل، ٣٠ يونيو ٢٠١٧م.

الثورية التي كانت تزلزل ميادينهم وساحاتهم كانت في مخيلتهم أنشودة عذبةً تهدهد كياناتهم الجريحة التي تئن من وطأة الاستبداد، فلقد احتوت تلك العصبة الثائرة مقام الخسف والهوان الذي لاقته من تلك السلطات الغاشمة المستبدة، فخرجت تزلزل بصيحاتها أركان ساحاتها، لقد هزجت أنفسهم بصيحاتهم الثورية التي سرعان ما خمدت بعد خريفهم، فهزجت ألسنتهم بالشعر نفثة صادقة.

إن تلك الصيحات قد أشعلت زناد ثورتهم، واستفزت حماستهم، وأطافت بهم في عرصات الحلم، ومثلت مستراحًا لذواتهم، ومرقاة لأحلامهم. لقد استفرغ بها الثوار طاقات السلب التي احتشدت في ذواتهم المؤرقة، وزودتهم تلك الصيحات بمدٍّ ثوريٍّ فياضٍ لا ينضب.

لقد أبدى ذلك الحدث الثوري عن ناجذه لأولئك الثوار، واغتال أحلامهم وأمانيهم في حياةٍ كريمةٍ عادلةٍ، فنزفت دماؤهم على أرض ميدانه، لتروي أحلامهم الندية. لقد استفرغ هؤلاء الثوار جهدهم وطاقاتهم في المناداة بالحرية والكرامة، فقد باتوا على أمل يُحَوِّل صخب حياتهم هدأةً وأمنا. لقد ناءت نفوسهم بحمل أثقالها في هذه الحياة التي حرمتهم الحق في حياةٍ كريمةٍ، فاستطردوا الخوف من نفوسهم، وأقالهم أملهم من عثرته، وأناخوا الخوف خارج ذواتهم المتعبة المؤرقة، واستبانوا نهجهم نحو العدالة الاجتماعية.

إن مقام الشهادة الرفيع وساحته الرحبة تستدعي إلى الأذهان كل من قدَّم روحه فداءً للوطن. إن أولئك الثوار ما عجزوا وما تضعضعوا بعد سقوط أولئك الشهداء الذين خضبوا الميادين بدمائهم، وما وهنوا لما أصابهم من قذفٍ وضربٍ.

لقد مني الميدان بأولئك المعتدين الذين رووا أرضه بدماء الشهداء، وعاثوا بين أرجاه فسادًا، لقد حلَّ أولئك الثوار بساحاتهم الثورية يبتغون البرء من أدوائهم، ليخيب مسعاهم. إن الذات الشاعرة التي عراها الأسى لم تستسلم لشعور الجوى الذي ضرم النيران بين جنبيها، فراحت، وهي نازفةٌ، ترجو الفلاح في غدها.

إن هؤلاء الثوار الذين حَلَّقت أرواحهم في فضاءات الحرية والرجاء يجدون أنفسهم الآن في مساراتٍ تبلغ ذروة الضيق يعانون الغياب ومتاهات السلب والتيه في دوائر الاغتراب، تجوب أرواحهم القلقة دون توقف في فضاءٍ مفعمٍ بالوحشة والخسارة.

إن تجربة سقوط الثورة التي أشرفت بهم على الهلاك قد وطئت نفوسهم وطأةً منكرةً، فزعزعت ثوابتهم، وأطاحت بأحلامهم ورؤاهم ونظرتهم الحالمة المشرقة الصافية.

وقد انفلت زمن ربيعهم من بين أيديهم بلا هوادةٍ معلنًا نهايتهم، وقد أصروا أن يجولوا في حلقة الأمل والمثابرة قبل أن تلفظ الثورة أنفاسها الأخيرة، وقد بقي من نفوسهم الجريحة حشاشة تتردد بين جنباتهم.

إن (شهد) التي مثلت معادلا موضوعيا للثورة وهي متربعة على عرش الجمال، ومتصفة بتمام الحسن، فسحرها الأخاذ الذي يستلب العقول، ويخلي السبيل بين المرء وإدمانه، قد استطاعت تلك الفاتنةع١٩ الخلابة أن تغير ناموس الأشياء وتبدل طرائقها، فعندما اندلعت شرارة الثورة سرعان ما توهجت وسرى لهيبها. لقد أضحى الدم الذي استقاه الميدان في خضم تلك الثورة أكسير الحياة الذي أعاد صياغة المفردات، وبث فيها معاني وضاءة.

لقد أضحى ذلك الميدان أيقونةً، وأصبح بدوره حامي ذمار أولئك الثوار. لقد تماهى كيان أولئك الثوار مع ميدانهم، فأطلق قواهم من مكمنها، يقول حسن طلب[١]: ١٧٠

وإلى أي أرض سوى هذه ..لا تكلني
لستُ في ساحة غير ساحك بالمطمئن

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م:

الشهداء:

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوَءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٦٩، ١٧٠) إن الشهداء يبلغون منزلةً سامية سامقةً فريدةً لا يبلغها الشك الذي قد يطول معظم الثوابت، إن ذلك الشك الذي ضرب بجذوره في المعتقدات والمسلمات ، وقد فتَّ في عضد الثورة، ونخر في بنيتها، وآل بالإيمان إلى أشطان الكفر والإلحاد، وأحال الثورة العامرة الوضية إلى ذكرى خربةٍ صدئةٍ، فالشك قد طاول أقطاب كل الثنائيات على اختلاف أبعادها وأزمانها وطبيعتها، ليدفع الشاعر حسن طلب في نهاية قصيدته بعنصرٍ مائزٍ فريدٍ لا يمكن –بأية حالٍ من الأحوال– أن يعتوره الشك، وأن يدلف به الفكر إلى مضايق النقص والعور والاستلاب ألا وهو دماء الشهداء، تلك الدماء الطاهرة الندي التي سطرت معالم الحري، وأهدت الشعوب العطر والسوسنة، وأناخت بهم في فضاءاتٍ آمنةٍ وادعةٍ بعيدًا عن هجير الحرب والدمار والفناء، فدماء الشهداء هي الحبل المتين، والحصن الحصين الذي لا يأتيه الشك من بين يديه، ولا من خلفه، فحق الشك مكفولٌ في كل تلك المعطيات المترعة بالإيجاب والغيبيات والماورائيات، ولكنه لن يمس أبدًا تلك الدماء الطاهرة التي منحتهم أفاويق الكرامة.

لقد مثَّل حدث استشهاد أولئك الأبرياء مستراحًا من لأواء دنياهم وصروفها الكدرة، وجمامًا من مشاقها، إن تجرب الدفاع عن الأوطان في خضم تلك الثورة قد انطلقت من عقولٍ وكياناتٍ ثرةٍ ملأى الوفاض باليقين القائم على المعاينة والمعايشة لتجربة الاستلاب، لقد مثلت تجرب الولوج في دوائر الثورة مسبارًا بالغ الأهمية والقيمة في فض ماهية كياناتهم وحقوقهم ، فقد امتحنوا بها فلسفتهم ورؤاهم ومحصوا مواقفهم.

لم تكن أيام أولئك الشهداء في ظل هذه الظروف العصيبة هنيةً، بل كانت قسيةً، ولم تنقشع عن معظمها المثالب والآلام والأوجاع.

لقد مثلت تلك الحشود تعلة لكياناتهم التي آذاها الظلم والاستبداد والتردي، فقد باتوا يراوحون في ميدانهم بين ماضيهم المكدود ومستقبلهم المفقود. لقد صوَّتت بهم صيحة الحق ونداءات الحرية، فلبوها بدمائهم الطاهرة الندية، وقد حرَّكت هتافاتهم أحلامهم الثاوية، وأقالتهم من عثرتهم، وأحيت موات نفوسهم، وداوت كياناتهم من السلب الذي اخترمها. لقد جمح بهم مرادهم في تغيير الأنظمة السياسية إلى الرغبة الأكيدة في إسقاطها، فهم لم ييأسوا، وظلوا يطرقون أبواب الأمل، ومشاعل الثورة ما اهتزت في أيديهم حتى نزفوا الدماء على أرض ساحاتهم الثورية.

إن تلك التجربة قد نضَّت كيانات الآخرين، وأفرزت بدورها طاقاتٍ قصوى من الحماسة والرغبة المستميتة في التغيير. فلم تمثل تلك التجربة نافجةً أطاحت بحريتهم وأعمارهم، ولكنها كانت –في حقيقتها– بردًا وسلامًا على مسار الثورة وأهدافها.

وقد خصص طلب القصائد الافتتاحية (١–٤) التي حملت عناوين (يقول الشهيد/ دم الشهيد/ دعاء الشهيد قبيل الشهادة/ لا شك في الشهداء) ليتحدث إجمالًا عن الشهداء، ويتناول رؤيتهم لمسألة الشهادة، وأهم مبادئهم، ووصاياهم، ومنزلتهم السامية السامقة التي لا تضاهيها منزلة، وكأنه بتلك القصائد يضع حجر الأساس، ويشيد الزاوية التي سيتكئ عليها في سبر أغوار قضية الثورة، وبيان مآلها، وتقييم أوضاعها، فالثورة التي قُدِّم الشهداء في مذبحها قربانًا لها كان يجب أن تحظى بتمام النجاح والإيجاب.

وقد حرص (طلب) على تنويع نماذج شهداء سفره الشعري، فنسج قصيدةً غراء لكل فئةٍ من الفئات، فشملت قصائده (الشباب/ الشابات/ شهداء الشرطة/ الصحفيين/ الأطفال الأبرياء/ شهداء الجيش/ شهداء الأقاليم/ شهداء العاصمة)

في إشارةٍ إلى ضلوع فئات الشعب كافة في التضحية من أجل الوطن في مواقف عدة، فاستحق الوطن جميعه أن يحظى بالحرية والكرامة الإنسانية نتيجة تلك التضحيات الثمينة.

إن الإيجاب لن يتأتى من المشابهة والتطابق والتكرار، ولكنه ينبع من مَعين الفرادة، فالشيخ الأزهري سيخلع عن نفسه عباءة الاتباع، ويسلك مسالك الابتداع، ويحلق في فضاءات الفكر.

إن ذلك الشيخ الأزهري سيصحح النهج والرؤى، فلن ينحاز إلى أساطين اللغة والبلاغة والشعر من المادحين أو الذامين، ولن يبحر في أنهر من ضلال، ولن يخوض مع الخائضين، ولكنه سينيخ براحلته في ظلل الميدان، ذلك (البيت الحرام) الذي شرع في هذا الحدث الجلل الحج إليه، وقد أوصى أولئك المتظاهرين بالثورة على الطغاة والغاشمين، فعليهم أن يبددوا في أنفسهم شعور الخوف، ليختم (حسن طلب) قصيدته بعبارةٍ ملؤها القوة والحكمة، إذ يقول[١]

إذا ثرتم عليهم لا تخافوا بأسهم

مَن خاف لا يسلم.. بل مَن فر.. لا ينجو

لقد اشترك أولئك الثوار جميعهم في أهدافهم ومطالبهم وشعاراتهم، فمهما تنوعت مشاربهم وأقطارهم وأعمارهم وانتماءاتهم، فجميعهم قد راح يندد بالظلم والطغيان والاستبداد، ويلهب النفوس بشعاراته. إن أولئك الثوار في ذلك الميدان الثوري الذي استحالت فيه طبائع الأشياء، واختلفت قواعدها وأحكامها، وقد اكتست حينها بريقًا ووهجًا –لن تتبدل عقيدتهم، ولن ينخلعوا من ربقة ديدنهم، ولن يستطيع أحدٌ مهما بلغ شأوه أن يثنيهم عن مبادئهم، يقول طلب[٢]

فاحفظوا أسماءنا

(١) المصدر السابق : ٣٠.

(٢) المصدر السابق: ٨.

ولتسألوا الميدان.. يشهد أنه لم يرنا خفنا المنايا
لم يجدنا عند إطلاق الرصاص الحي.. آثرنا السلامةْ

فمهما تعددت منابعهم وروافدهم، ومهما اختلفت مشاربهم التي اغتذوها قبل أن تطأ أقدامهم أرض ميدانهم، ويحظوا فيه بالشهادة، فقد اشتركوا في النبوغ والفرادة والإبداع، وكأن تلك الصفات المائزة هي التي أهلتهم لبلوغ تلك المنزلة.

لقد ارتفع الحدث الثوري وفضائه عن القوانين الحاكمة للأشياء والشخوص، وحلَّق في آفاقٍ بعيدةٍ عن المثالية، ليخضع إلى إواليات جديدةٍ مخالفةٍ للمألوف، ويرتفع عن الاعتيادية، لقد اشترك الثوار في جملةٍ من الفضائل، وقد حازوا قصب السبق في قيمٍ بعينها كانت بمنزلة الخيط الذي انتظموا به في سلك الشهادة، فهم جميعًا يتسمون بفيضٍ من نقاء الضمير، والحماسة، والنبل، ومحبة الحياة، والتفاني، والإخلاص في العمل، وكانوا متفردين في طرائق تفكيرهم، وأهدافهم، واتجاهاتهم.

الشهيد	مظاهر اختلافه
شيماء	(شيماء بين اللدات وسائر أترابها: نابغة)[١]
أحمد بسيوني	(كان يجوب الميدان من القلب إلى الأركان لتوزيع الأدوار على الثوار كأن الميدان هو المسرح.. وهو يحرِّك أشخاصه)[٢]
ميادة أشرف	(ولم يكن يجذبها ما انشغلت به لداتها: من الجديد في الأزياء والأشياء في السوق إلى مشاكل السمنة والنحافة)[٣]

(١)المصدر السابق: ٣٦.
(٢) المصدر السابق: ٥٠.
(٣)المصدر السابق: ٥٨.

آلات الشهداء:

لقد عني الشاعر (حسن طلب) بإبراز آلات أولئك الشهداء التي تنوعت بين القلم والريشة وآلة التصوير الفوتوغرافية لتبرز في حالة تناقض جلي فج مع البنادق والرصاص، فالحسيني أبو ضيف قد راح يسطر بآلته التصويرية تلك الأحداث الدموية، وقد هيأت له مهنته كشف حجب المستور، وفض مكنوناته، وأرهفت بدورها حدسه، وأطلقت قواه من مكمنها، فانطلق يبحث بحسه الصحفي عن معالم هذا التغيير المرتقب، فهو سيتصدى حتمًا بأدواته إليه ليفضح الزور، ويكشف التدليس، ويعرِّي الفساد، ويطرح الوهم عن ذاته وعن الناس، ليقطع الرصاص سبيله، ويخلي بينه وبين الحقيقة.

لقد مثلت تلك المراثي للذات الشاعرة نسغًا قد انفجر من كيانها المعذب الجريح بعد ما عايشته من تجارب إزهاق أرواح أولئك الشهداء الأبرياء المخلصين.

آلات القمع:

ولعل المقارنة بين آلات الفريقين (الثوار/ أعداء الثورة) يفضي إلى عدم التكافؤ، أو التعادلية بينهما، فبينما يستخدم الثوار آلات بائسة بدائية، نحو: الترس/ السهام/ الأقواس/ الفؤوس)، يفتن الآخر في استخدام آلات قتل حديثة موغلة في الدمار، والوحشية، والفتك، نحو: (البندقية/ السكاكين/ الرصاص/ القنابل) ليرتفع بها حس التوتر والعنف والنهاية المفجعة الأليمة، بينما أتقن الثوري فنون الحياة، وبرع في الكتابة والموسيقى التي تغذي الروح وترتقي بها من مدارك الشرور والعداء والإسفاف. إن تلك الفجوة بين آلات الفريقين تمهد بدورها السبيل لظهور تلك النهاية السلبية الأليمة للثورة.

لقد استحالت أدوات القتال (دخان القنابل) أشياءً مغايرةً لطبيعتها، يقول حسن طلب[١]:

(١) المصدر السابق: ٨٩.

صحونا على غرةٍ
فإذا قلب ميداننا جنة.. ومداخله منتزة
إذا بدخان القنابل في جوه كالنسيم العليل
فشكرًا لشهد التي عطرت حيزه

إن أدوات القتال قد استحالت إلى طبيعة مختلفة تمامًا لتتحول من تمام السلب إلى أقصى درجات الإيجاب في إشارةٍ إلى الثوار، وقوة (الثورة)، ومدى تأثيرها البالغ على تحول طبائع الأشياء، وقدرتها على تغيير قوانينها وآليات اشتغالها.

لقد افتن الآخر في توظيف آلات القتل الفتاكة التي أخذ يسفك بها دماء الأبرياء بطريقة وحشية، ويغتال بها أرواحهم البريئة الطاهرة، يقول طلب [١]:

لم يتقنوا أمرًا عدا كل فنون القتل
بالتفجير أو بالذبح.. أو بالوقذ
أحزمة ناسفة حول خصورهم
رصاص الغدر في قلوبهم
وفي جيوبهم مداهم.. وبغير حاجة للشحذ

ويقول[٢]:

ولم تكد تكتمل الجملة
حتى انهمر الرصاص
فما علمنا من نجا؟ ومن أصيب؟
ما عرفنا فوق أي سطح يختبئ القناص

(١) المصدر السابق: ٦٥.
(٢) المصدر السابق:٨٢.

المبحث الثاني

الفضاء في ديوان (سفر الشهداء)

الفضاءُ لغةً:

ورد في **(الصحاح)** أن الفضاء هو السَّاحة، وما اتسع من الأرض. يقال: أفضيتُ، إذا خَرَجْتُ إلى الفضاء.[١]

جاء في معجم **(لسان العرب)** أن الفضاء هو المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يَفْضُو فُضُوًّا، فهو فاضٍ [٢].

وفي (القاموس المحيط) مادة (فضو): (فَضَا المكانُ فَضَاءً وفُضُوًّا: اتَّسَع، كأفْضَى، و– دراهمه: لم يجعلها في صُرَّةٍ. والفَضَا: الفَضَى، والشيءُ المختلِط، وبالمَدِّ: السَّاحةُ، وما اتَّسَع من الأرض) [٣]

الفضاء اصطلاحًا:

عرَّف لطيف زيتوني مصطلح **(الفضاء)** بقوله: (الفضاء في الرواية هو شيءٌ مصنوعٌ تتصهر فيه عناصر متفرقةٌ جغرافيةٌ، أو نفسيةٌ، أو اجتماعيةٌ ثقافية، فالفضاء الجغرافي هو من محدِّدات الحَدَث "فضاء، باطن الأرض، غابة، غرفة مقفلة، قصر الملك" ومن محدِدات الشخصية اقتصاديًّا واجتماعيًّا: فيلا، بيت حقير، ونفسيًّا: نوافذ مغلقة، لوحات غريبة)[٤]

وقد ذهب (جيرالد برنس) إلى تعريف الفضاء بأنه: (المكان، أو الأمكنة التي تقع فيها المواقف والأحداث المعروضة) [٥]

---

(١) الجوهري، الصحاح: ٢٤٥٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ١٥/ ١٥٧.

(٣) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط دار الحديث، القاهرة– مصر :ط ٢٠٠٨م: ١٢٥٣

(٤) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية: ١٠١

(٥) جيرالد برنس، قاموس لسرديات: ١٨٢

وقد ذهب (رشيد بن مالك) إلى أن: (تعريف الفضاء يستدعي مشاركة كل الحواس، وسيضطرنا إلى إعطاء أهمية بالغة للأوصاف المحسوسة: مرئية، لمسية، حرارية، صوتية إلخ) [١]

إن الفضاء حسْب ما أورد فيصل الأحمر (أوسع من مفهوم كلمة المكان)[٢]

وتابعه في ذلك القول حميد لحمداني، إذ يقول: (إن الفضاء في الرواية هو أوسع، وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكلٍ مباشرٍ، أم تلك التي تُدرَك بالضرورة)[٣]

وجاء في (القاموس المحيط) مادة (سوح): (الساحة: الناحية، وفضاءٌ بين دور الحي، ج: ساحٌ، وسوحٌ، وساحاتٌ) [٤]

لقد ارتكز الفضاء في ديوان (سِفْر الشهداء) على تلك الميادين الثورية، فقد مثلت تلك الساحات الثورية ساهرة تفيض أرجاؤها بعذب الأماني، ولم تسلم الثوار إلى أرض ميعادهم، فقد أخلفت بهم الموعد والعهد، فقد انتقضت أحلامهم، وانتكست آمالهم، وأخلقت آمالهم في لظاها المستعر. لقد تمثلت ثورتهم في أذهانهم قبل اندلاعها مخلصًا من عذابات واقعهم المرير، ومطهرا من أدرانه

(١) رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي لنصوص، ط دار الحكمة، ٢٠٠٠م: ٧١.

(٢) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، دار الاختلاف، الجزائر، ط١ ٢٠١٠م: ١٢٥.

(٣) حميد لحمداني، بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ط المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩١م: ٦٤

(٤) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ط دار الحديث، القاهرة– مصر، ٢٠٠٨م: ٨٢٠.

ونجاساته، وقد رأوا في ميادينهم وسيلةً لفك كبت رغباتهم في الحرية والتعبير، فآضت أتونًا مستعرًا تحرقت فيه أعمارهم.

تقول سيزا قاسم: (المكان ليس حقيقة مجردة، وإنما هو يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز) [١]، إن تلك الميادين الغاصة بالثوار صارت رحيبةً كآمالهم وأمنياتهم الغضة العريضة في غدهم المشرق بالحرية، فما أطاق الثوار رحلة الجمود والاستسلام بعد أن أعلنوا الربيع العربي، فقد مثل الجمود والاستبداد داءً عضالًا شفته الثورة، ودنسًا متمكنًا من جسد الأمة فَحَرَضَته. لقد ارتأى الشعب في أولئك الشبان عندما هاجت هائجة الثورة نابتة خيرٍ تبشر بانقضاء غيمة الفساد والاستبداد والجمود، وتؤذن بسطوع العدالة والحرية والمساواة، فآزرهم وانتهج نهجهم، فقد بذلوا نخيلة قلوبهم سعيًا إلى هدفهم.

لعل تلك الميادين والساحات التي كانت تغص بالثوار، ولا ينفذ البصر في أرجائها من كثرتهم، وقد تزلزلت بصيحاتهم، وتخضبت بدمائهم، قد أضحت شاهدةً على زوال حلمهم، وأفول نجم إيجابه، فلقد مثلت تلك الساحات الثورية ساهرة دشنوا في أرجائها أحلامهم ورؤاهم.

لم يَمْثُل الفضاء في (سِفْر الشهداء) بوصفه ساحة يجتمع فيها الثوار منددين بالفساد، ومطالبين بسقوط أولئك الغاشمين المستبدين، ولكنه استحال في ظل ذلك الحدث الثوري الجلل إلى فضاءٍ مغايرٍ لطبيعته السالفة عندما ارتوى بدم أولئك الشهداء، فقد نفثت دماؤهم فيه حياةً، وبعثته من مرقده، وقد سرت الحيوية في أوصاله عندما دب فيه دبيب الثوار، وتزلزلت أركانه بصيحاتهم وحناجرهم، إن ذلك الفضاء كان منصفًا، فلم تنتقل إليه دعاوى التمييز والعنصرية، يقول

(١) سيز قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، ط مكتبة الأسرة، مصر ٢٠٠٤م: ١٠٦

حبيب مؤنسي: (تتكشف معضلة المكان في شكلها المعقد حينما يلامس التفسير والتأويل تخومًا، يكون فيها المعنى أكثر ارتباطًا بالمكان وإيحاءاته، وكأن المعنى لا يكتسب أبعاده القصوى إلا إذا استرفد المكان، واستخلص منه محمولاته الدلالية) [١]

لقد اكتنز هؤلاء الثوار جملة دوال الإيجاب والزهو والقوة في فضاء الميدان بما يتنافى مع صورته التقليدية المتجذرة في تلافيف العقل الإنساني.

لقد جمع فضاء الميدان بين أرجائه صنوفًا شتى من الناس، فصار على حد تعبير طلب (مدينة مجنونة)، إذ يقول[٢] :

قلت: فيا لذلك الميدان من مدينة مجنونة

يختلط الصراخ فيها بالثغاء والرغاء ... والهسيس

مدينة: جمعت الصبيان طرا والصبايا

وترى الطفل بها والكهل

والشيخ العجوز الدردبيس

لقد صار المستقبل المجهول الذي كان يعنِّي النفوس والعقول موفور القيمة وضاءً في أعين هؤلاء الثوار الطامحين إلى التغيير والإيجاب، فلقد أضحى الميدان دارتهم التي أناخوا بها من هجير أزمتهم، ودائهم الدوي، وحملهم الرغيب عندما انبثت في كياناتهم مشاعر الاستلاب والظلم، وذهبت نفوسهم لماعًا.

إن فضاء (الميدان) الذي شهد ميلادها وفورتها، يقف الآن شاهدًا على نهايتها، فلقد أخذت تلك الشهب المنيرة الوضاءة الدوارة في الساحات والميادين الثورية في السقوط، وقد استحالت إلى ناقةٍ دبراء ملقاة في باحة الميدان يتردد

(١) حبيب مؤنسي، فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية– دراسة)، اتحاد الكتاب العرب: ٧الموت

(٢) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٦١.

بين جنباتها هسيس الوحشة، وأنين الألم، وقد لقيت مصيرها المحتوم بعد ما عانته من استلابٍ، وشتاتٍ، وإعياءٍ، فقد وقف الشاعر (حسن طلب) شاخص البصر في فضاء الميدان يتابع عن كثبٍ أولئك الشهداء، وهم يسقطون صرعى على أرض ميدانهم بعد أن اغتالتهم اليد الآثمة الغاشمة.

لتبدو في نهاية المقطع وهي ملقاة تعلوها جملة من الغربان والحدأة في إشارة إلى تمكن السلب وسيطرته واستحكامه في بنية تلك الثورة.

لقد استحال ذلك السِّفْر الشعري لحسن طلب إلى مرثيةً للإنسانيةً، وإدانةً بالغةً الحدة لأولئك الذين استحلوا الدماء، وحولوا الساحات إلى مجازر، واغتالوا الأبرياء، وكمموا أفواه المطالبين بالحريات. إن ذلك البلد قد استحال ميدانًا، إن ذلك الميدان قد أخصب وحمل في رحمه الثر الحري، فأخصب جملً من الميادين التي اتسعت شيئا فشيئا بعد أن صدر الناس أشتاتا، وفزعوا إليها من كل حدب وصوب، ليروا نهاية الغاشمين، ومآل الظالمين. لقد شكَّل الميدان أيقونةً رئيسةً في ذلك الحدث الثوري، وقد انصهرت تلك العناصر المتباينة في بوتقة الميدان، وأفرزت بدورها نسيجًا واحدًا متلاحمًا يشكل تلك الأقطاب المتغايرة فيه...وقد استحال ذلك الميدان إلى فضاء حيادي لم يتلوث بالطائفي، فالفضاء لن تتبدل مدلولاته عبر أحداث الثورة.

إن ذلك الحدث الجلل يضفي إلى الميدان سمت (الزعامة)، يقول (لطيف زيتوني): (هناك كتاب كثيرون حمَّلوا الفضاء شيئا من التضمين أو الرمز) [(١)]، وقد جعله طلب (كعبة/ صليبا/ حصنًا) في إشارةٍ إلى الاتحاد والتماهي ونبذ العنصرية والتفرقة والتمييز، ففيه تتحقق عناصر الحماية والأمان الذي تشير

(١) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط مكتبة لبنان ناشرون، ط دار النهار للنشر، ط١ ٢٠٠٢م: ١٣٠

إليهما لفظتا (الملاذ/ الركن)، ليستحيل إلى فضاءٍ قادرٍ على منح أولئك الثوار أقصى طاقات الحماية، يقول (غاستون باشلار): (كل الأمكنة المأهولة حقًّا تحمل جوهر فكرة البيت) (١)

لقد مثَّل ذلك الفضاء الثوري (الميدان)موطن اليقين، فذلك الميدان قد استحال فضاءً ماردًا ينهض على دماء الشهداء، وإخلاص الثوار. لقد استحكم عزم أولئك الثوار في فضائهم الذي بث في نفوسهم القوة والجرأة والحماسة، وقد بلور ذلك الفضاء الثوري مهاد إنسانيتهم الحقة، وطوع أداتهم النافذة الأثيرة للقاء حريتهم المنشودة.

إن ذلك الميدان قد استطال بعد هذا الحدث الثوري، وأصبح بمقدوره الذود عن تلك الكيانات الثورية المناهضة للفساد. إن الشاعر (حسن طلب) يؤكد حالة (التماهي) بين الفضاء والثوار، فلن يضحي الميدان ساحةً لثورتهم المجيدة فحسب، بل ستتحد كينونتهم به، وتتمحي تلك الحدود الفاصلة بينهما، وتتلاشى العقبات، ليتحدا معًا في رابطةٍ إنسانيةٍ فريدةٍ آسرةٍ توحد بين المادي والإنساني، وترتفع بالميدان إلى منزلة الأخ والخليل والخدن، ويرى برادلي أنه: (إذا قمنا بتحديد العناصر التي يتألف منها المكان لوجدناه ينقسم إلى عَلاقات، بل يتلاشى في هذه العَلاقات) (٢)يقول طلب(٣):

لست في ساحة غير ساحك بالمطمئن

سيدي أنتَ.. لا بل أخي وخليلي وخدني

(١) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط٢ ١٩٨٤م: ٣٦.

(٢) محمد توفيق الضوي، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة، دراسة في ميتافيزيقا برادلي، ط منشأة المعارف بالإسكندرية: ٤٨

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٤.

لقد أضحت ميادين ربيعهم وساحاته خمائل وارفةً في أعين أولئك الثوار، يدنو قطافها، وتطيب ثمارها.

الميدان مسرحًا

لقد استحال الميدان مسرحًا تتوزع فيه أدوار البطولة الثورية، يقول الشاعر((١)

لم يخلص أحدٌ للثورة إخلاصه

كان يجوب الميدان من القلب إلى الأركان

كأن الميدان هو المسرح.. وهو يحرِّك أشخاصه

إن ذلك التصوير يدل على مدى إيمان الثوار بقضيتهم، واندماجهم بأدوارهم المنوطة بهم بين أبعاده، ويشير –في الوقت نفسه– إلى بلوغهم حالةً قصوى من التوحد بهذا الميدان وتلك الثورة، وكأنما قد أمسكت بتلابيب أرواحهم، فذلك العرض المسرحي الثوري قد استنفر فيهم كل إنسانيتهم وطاقاتهم وآمالهم وحماستهم، وبلغ بها أعنة السماء.

إن الميدان –ههنا– لم يقتصر على أولئك الثوار الذين قصروا هممهم على المطالبة بالحقوق السياسية، وجعلوا الوطن قضيتهم وشرعتهم الفريدة، ولكن ذلك الميدان قد ضم بين جنباته أطيافًا عدة، نحو ذلك (الشاب الظريف) الذي هام بحب الساحرة المستديرة، وراح يطلق هتافاته التشجيعية لفريقه، لتتماهى –من وجهة نظره– المباراة الرياضية بالأحداث السياسية، يقول حسن طلب[٢]

كان شابًّا صغيرًا غريرًا.. من الفئة الراقيةْ

وبحب الرياضة كان شهيرًا

(١) المصدر السابق: ٥٠.

(٢) المصدر السابق: ٥٣.

ورأيناه في غزوة الإبل
اختار أن يتسلق أعلى الجدار..
ليهتف: نحن سنهزم جند التتار..
سنكسب تلك المباراة بالضربة القاضيةْ!

إن ذلك التنوع والتباين الشديد في خلفية أولئك الثوار قد منح الثورة قوةً بالغةً، ودفع بها إلى التحقق والاستمرارية.

يستدعي فضاء (الميدان) كل مكانٍ خاض فيه الأحرار حربًا ضروسًا لتحرير مقدساتهم وتربهم الطاهر، ليبرز إلى جانب ساحة ميدان التحرير ميدان الحرب في سيناء، فكلاهما قد اشترك في معطياته. ويتنوع الفاعلون، وتتعدد فضاءات الميادين، ولكنها –في الوقت نفسه– تحمل الهوية ذاتها.

إن الميدان قد اكتست قدسيته من هذا الحدث الثوري ليصير كعبةً يحج إليها أولئك الثوار، فهي قبلتهم الفريدة، ورمز التوحيد والهداية والتسليم التام، وهي شرفهم السامق، وعزهم المجيد، فالميدان يستحيل فضاءً مثاليًّا تنخلع عليه صفات الإيجابية التامة والقداسة والطهارة والسلام والطمأنينة، فلم يعد فضاء يضج بالقلق، وتفوح منه رائحة الموت بسقوط أولئك الشهداء، فهو يبشر دومًا بالسلام والإيجاب الذي سيحظى به الجميع بعد نهاية ثورتهم وانتصاراتهم على قوى السلب والظلم والطغيان، فذلك الميدان يمثل كعبً يحج إليها الثوار على اختلاف أعمارهم، وأطيافهم، وديانتهم، وانتماءاتهم، فهم جميعًا يمثلون نسيج هذا الوطن ولحمته وسداه، فالمشاركة في غمار هذا الحدث الثوري تعد فرضًا إلزاميًّا على كل قادرٍ من أبناء هذا الوطن، ولا يجوز إسقاط ذلك الركن، فهو يمثل حجر أساسٍ في إيمان الفرد بوطنه.

إن ذلك الميدان لا يعرف التعصب، ولعل ولوج الميدان في دوائر الثورة قد نفخ فيه روحًا جديدة[(١)]:

منذ استقى إسفلته من دمنا

منذ ارتوت ساحته

فلم تميز دم نصرانيتنا المسفوح ... عن مسلمنا

لم يعد الميدان كما من قبل كان

ولم يعد محض مكان

إن ذلك الفعل الثوري قد خلق حالةً قصوى من الاتحاد والتماهي والفناء بين الفضاء والثائر [(٢)]

لستُ منك إذا لم أكنك.. ولا أنت مني إذا لم تكني

ولعل ذلك الفضاء عندما يمنح الذات الشاعرة مكانًا بين أرجائه، فإن تلك الأبعاد تستحيل زمنًا سرمدًا، في إشارةٍ إلى مدى التحول الجذري الذي يفيض به ذلك الميدان على أولئك الثوار[(٣)]

فلتهبني مكانا يرى من لدنك

أهبك أنا زمنا سرمدًا لا يرى من لدني!

إن أولئك الثوار قد صار بمقدورهم منح زمان سرمدي إذا جاد عليهم الميدان بالبقاء بين أرجائه الملهمة الخلاقة التي تفجر في شراييهم طاقات الحياة.

إن المكان/ الميدان في ذلك السِّفر الشعري قد استحال فاعلًا نسج بدوره الحدث، وحرَّك الشخوص، وبث فيهم طاقات الأمل والتفاؤل والحياة والحماسة،

(١) المصدر السابق: ١١.

(٢) المصدر السابق : ١٦.

(٣) المصدر السابق: ١٦.

فالميدان لم يكن مسرحًا للأحداث فحسب، بل هو المحرك الرئيس الذي تدور في فلكه الشخصيات جميعها، فقد استحال فضاءً أسطوريًّا.

فالذات الشاعرة حريصة على إبراز فضاء الميدان في حلته القشيبة المهيبة، وقد أضفت عليه أبعادًا سحريةً، وأناخت به في ظلل القداسة، يقول طلب[١]:

يا إمام الميادين زِد بي.. وزدني

أنت يا كعبتي وصليبي.. وحصني

باب حريتي أنت.. أنت ملاذي وركني

فالميدان قد أضحى (كعبةً) يحج إليها الثوار، وبيتًا حرامًا وجب على كل وطني أن يحتمي بذراه، وقد منح الشهداء مفاتح النعيم، وقلدهم أرفع الأوسمة، وارتفع بهم عن حضيض الشك والتفنيد بعد أن أسلموا أرواحهم بين جنباته، يقول طلب في قصيدته الموسومة (لا شك في الشهداء)[٢]:

لكل من يشك حق الشك كيف شاء

فليشك كل الشك

إلا في دماء الشهداء

فمنزلته السامية السامقة لا يدنسها ادعاءٌ، أو مغالطة، وقد آلت إليه الزعامة، يقول طلب: [٣]

يا زعيم الميادين.. أنت المنى والتمني.

وقد تنوعت الفضاءات التي حلَّق بين أبعادها (حسن طلب)، وقد جمعت بينهم رحمٌ ماسةٌ، ومن بين هذه الفضاءات:

---

(١) المصدر السابق: ١٣.

(٢) المصدر السابق: ٢١.

(٣) المصدر السابق: ١٣.

سيناء:

وقد برزت سيناء فضاءً حوى بين أبعاده جملةً ثرةً من الشهداء الذين قدموا أرواحهم الطاهرة فداءً لترب أوطانهم، يقول طلب [١]:

باسم الدم الغالي الذي سال على أرضك يا سيناء
في كرم القواديس وبئر العبد
في العريش أو رفح
باسم من استشهد من جنودنا ومن جُرِح

إن أولئك الشهداء قد ودعهم رفاقهم في ساحة المعركة بحالةٍ من التسليم والقناعة والإيمان التام بقضاء الله تبارك وتعالى، إلا أنهم قد آلوا أن يثأروا لدم أولئك الشهداء، وأن يحفظوا تراب أوطانهم المقدس، فلا يمسه خائن أو معتدٍ، يقول طلب[٢]:

باسم الضحايا الأبرياء هؤلاء:
لن يضيع حق هذه الدماء
لن تضيع ذرة من رمل سيناء.

فضاء الانفلات الأمني:

لقد حرص الشاعر (حسن طلب) على إبراز حجم الضرر البالغ الذي طال البلاد والعباد حين وقوع ذلك الانفلات الأمني عبر عرض جملةٍ من الفضاءات المتباينة المتفرقة من حيث طبيعتها وجغرافيتها، نحو: (المحلات/ البيوتات/ البنوك/ معارض الأدوات/ صالات المزادات/ الجوامع/ الكنائس/ المعاهد/

(١) المصدر السابق: ٦٧.
(٢) المصدر السابق: ٦٨.

الجامعات/ النوادي/ المقاهي/ الملاهي/ المطاعم/ البارات/ دور اليتامى/ دور المسنين/ الملاجئ/ حول أرصفة الموانئ/ صيدليات الطوارئ/ المستشفيات/ المتاحف/ المزارات/ مداخل المترو/ مواقف الباصات/ المطارات)إن ذلك الانفلات الذي عم واستشرى خطره، وأسفر عن خسائر فادحةٍ في الأموال والممتلكات ليدل على الثمن الباهظ الذي قدَّمه الشعب حصولًا على حريته، ودفعًا لنظمٍ طالما أرهقته، يقول طلب[١]

وكذلك انفلت الزمام.. وعمَّت الفوضى البلاد

من الشمال إلى الجنوب فشت.. ومن سيناء والدلتا إلى الواحات

أقسام الشرطة:

لم يفت (حسن طلب) أن يقف مليًّا على ذكر البواسل من رجال الشرطة الذين قضوا نحبهم جراء الإرهاب الغاشم، فراح ينعي شهداءهم، ويدين وحشية أولئك المعتدين الذين قتلوا، وأحرقوا، ودمروا، يقول طلب[٢]:

في البداية لم أستطع أن أصدق ما حدث!

فأنا من بشاعة ما عرضوه على الشاشة احترتُ..

قدَّرتُ أني أشاهد في السينما: فيلم رعبٍ.. فلم أكترث

(١) المصدر السابق : ١١٣.

(٢) المصدر السابق: ٧١.

المبحث الثالث

السيميائية و(سِفْر الشهداء)

لعل أول ما يلتقيه القارئ من مفاتيح دالة هي عناصر (المناص) التي تحمل هي الأخرى دلالات ثرة تعين على اكتناه النص الشعري، وفض مكنوناته، وسبر أغواره. وسوف تتعرض الأسطر القليلة القادمة لدرس بعض عناصر المناص المتمثلة في (العنوان: الرئيس، والفرعي/ الإهداء).

أولًا: العنوان:

١ – العنوان الرئيس:

يعد العنوان عتبةً رئيسةً لسبر أغوار النص الشعري، واستقراء مكنوناته، وهو يشكل نصًّا موازيًّا ينبغي تحليل مكوناته، يقول بسام قطوس: (العنوان نظام سيميائي ذو أبعادٍ دلاليةٍ، ورمزيةٍ، وأيقونية، وهو مثل النص، أفق، قد يصغر القارئ عن الصعود إليه، وقد يتعالى هو عن النزول لأي قارئ) (١)

وقد ذهب (لوي هويك) إلى أنَّ العنوان هو: (مجموعة العلامات اللسانية، من كلماتٍ وجملٍ، وحتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتُعَيِّنُه، تشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف) (٢).

يقول خالد حسين: (تنتمي العنونة بوصفها الآلية المنتجة للعنوان بمستوياته: الرئيس، الفرعي، الثانوي وَفق بويطيقيا جيرار جينيت إلى فضاء النصية الموازية، أو المرافقة) (٣)

(١) بسام قطوس، سيمياء العنوان، ط وزارة الثقافة، عمان– الأردن، ط١ ٢٠٠١م: ٦

(٢) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين:٦٧

(٣) خالد حسين حسين، في نظرية العنوان– مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، ط دار التكوين: ٣٥

وقد شكل العنوان الرئيس للديوان (إنجيل الثورة وقرآنها) حالةً قصوى من الاتحاد والتآزر والتناغم والانسجام والألفة حيث تتعانق مفردتا: الإنجيل، والقرآن، لتبرز حالة التوحد بما يمثلاه –في الوقت نفسِه– من مصدر التشريع لذلك الحدث الثوري الجلل، فهو متكئٌ على كتبٍ سماويةٍ مقدسةٍ، فهي تشير إلى اتصال الأرضي بالسماوي، وإضفاء حالة مقدسة على ذلك الحدث الثوري، ولتجمع في بوتقة العنوان أطيافً شتى معًا تنصهر مكونةً ذلك النسيج الوطني المتلاحم الذي يمثل الوطن لحمته وسداه.

يقول عنه يوسف الإدريسي: (إنه يمثل جزءًا دالًّا من النص يؤشر على معنى ما، ووسيلة للكشف عن طبيعة النص، والإسهام في فك غموضه) [١]

ويشير عنوان الجزء الثالث (سفر الشهداء) إلى ذلك الثمن الباهظ الذي تكبده أولئك الثوار الأحرار، يقول محمد فكري الجزار: (العنوان من جهة المرسل، هو ناتج تفاعل علاماتي بين المرسل والعمل، أما المستقبل، فإنه يدخل إلى العمل من بوابة العنوان متأولا له، وموظفًا خلفيته المعرفية في استنطاق دواله الفقيرة عددًا، وقواعد تركيب، وسياقًا) [٢]

وقد جاء في لسان العرب مادة (سِفْر) أن السِّفْر (بالكسر: الكتاب، وقيل: هو الكتاب الكبير، وقيل: هو جزءٌ من التوراة، والجمعُ أَسْفَارٌ) [٣].٤/ ٣٧٠.

(١) يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ط الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان ط١ ٢٠١٥م: ٦١.

(٢) محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م: ١٩

(٣) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ط دار صادر بيروت– لبنان، ط٣ ١٤١٤ هـ: ٢٤٢/٣.

وقد أورد ابن منظور في مادة (شهد) أن الشهيد: (المقتول في سبيل الله، والجمع شهداء، وفي الحديث: أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ورق الجنة"، والاسم الشهادةُ. واستُشْهِد: قُتِل شهيدًا. وتَشَهَّدَ: طلب الشهادة. والشهيد: الحي؛ عن النضر بن شُمَيْل في تفسير الشهيد الذي يستشهد: الحي أي هو عند ربه حي. وقال ابن الأنباري: سمي الشهيد شهيدًا، لأن الله وملائكته شهودٌ له بالجنة؛ وقيل: شُمُّوا شهداء لأنهم ممن يستشهد يوم القيامة مع النبي، صلى الله عليه وسلم، على الأمم الخالية) [(١)]، فهذا العنوان يوحي بأنهم ضحوا بأرواحهم الطاهرة، وسطروا بدمائهم الزكية ثورتهم المجيدة دفاعًا عن مقدرات أوطانهم، وحقهم في حياةٍ كريمةٍ عادلةٍ.

العناوين الفرعية:

جاءت عناوين القصائد في (سفر الشهداء) متوزعةً بين محورين رئيسين، هما: الشهداء، والثورة.

الشهداء	الثورة
يقول الشهداء/ دم الشهيد/ دعاء الشهيد قبيل الشهادة/ لاشك في الشهداء/ علامة استفهام/ مَن خاف لا يسلم، بمحض الفراسة/ وصية شيماء/ شهداء الأقاليم/ طبقات الشهداء/ شهداء الجيش/ شهداء الشرطة.	فقه الثورة/ لشهد الأولوية/ جمعة المتحف/ ديك الثورة/ تحققت المعجزة/ إفك افتراه/ عقرب الميدان/ جمعة النصر/ أي انفلات/ صندوق عائم/ المجلس العسكري/ بين ثائر وعاشق/ بقايا ثورة/ قصيدة: لو/ مأساتهم ملهاتهم/ طبقات الثائرين/ حزام النار.. وحزام العار/ قد أكون قد عشقتُ عاهرة/ بؤس الختام/ إذا الشعب يومًا/ مشوارها بدأ.

(١) المرجع السابق: ٤/ ١١٠.

لقد حرص طلب على أن يلج بالمتلقي في غمار الثورة، ويُمسك بتلابيب أحداثها المفصلية، وتغييراتها الجذرية متوسلًا بعنوان القصيدة الذي يمثل أولى عتباتها، ومفتاحها الفاعل لفك شفراتها.

وكأن تلك العناوين تمثل خارطةً لاستقراء حال تلك الثورة، وترصد حالاتها ما بين صعودٍ وهبوطٍ، وتغلق عناوين السِّفْر على حالة تحدٍ بالغٍ، ورغبةٍ مستميتةٍ في النهوض مجددًا، ونفض غبار اليأس والأحزان، وقد تبدى ذلك جليًّا في عناوين، نحو: (إذا الشعب يومًا/ مشوارها بدأ).

ثانيًا: الإهداء:

أهدى (طلب) سِفْره الشعري بقوله: (إلى أرواح الشهداء كافة.. من الشعب.. من الجيش.. من الشرطة.. سواء من ورد اسمه في قصائد هذا السفر.. أم لم يرد.. هؤلاء رمز للباقين) [١] يقول عبد الحق بلعابد: (تبقى معادلة الإهداء صعبة ومعقدة للغاية، لانفتاحها على لا نهائية) [٢]

إن الذات الشاعرة لم تحشد في مفتتح سفرها أسماء أولئك الشهداء، ولم تخصهم باسم، مؤكدةً بذلك أن اختفاء الاسم والجسد لن يعني انمحاء الرسالة والميراث، فقد سطروا بدمائهم الطاهرة ميثاق حرية أولئك الأحياء، وانسحبوا من دنياهم بعد أن أهدوهم العطر والسوسنة والوطن المسلوب، ولعل اختفاء الاسم يشير إلى ديمومة رسالة أولئك الشهداء، فهي ليست موقوفة على شخوصٍ بعينهم، ولكنها حاضرةٌ دائمةٌ شاخصةٌ لا يطويها النسيان مستمرة ما دامت

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٥.

(٢) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم: سعيد يقطين، ط الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١ ٢٠٠٨م: ٩٨.

الحياة، فرسالتهم تتأبى على المحو والزوال، وسوف يبقى أثرها فاعلًا في ذلك الفضاء إلى يوم يبعثون.

سيميائية اللون في (سفر الشهداء):

شكَّل اللون في ديوان سفر الشهداء مفردة بالغة الحضور والدلالة، فيوظف (حسن طلب) مفردة اللون الأبيض (ثورتنا البيضاء) للدلال على بلوغها أقصى درجات الطهر والنقاء، والتخلص من أدران (لآخر.

اللون الأسود:

يستحضر اللون الأبيض نقيضه (الأسود) إلى رحابه، لتتبين الفوارق بينهما، وتزداد الهوة والشقة بين الأطراف، يقول طلب[١]:

ليس من الأضداد بُد

فلكل ثورة بيضاء.. في ميدانها العريض

تكون شبه ثورة مضادة سوداء

تلتم بميدان نقيض

تقول جي. ي. كوبر عن رمزية اللون الأسود في موسوعتها المصورة عن رمز اللون الأسود إنه يعني: (الظلمة البدنية، والباطن، والشر، وظلمة الموت، والخزي، والقنوط، والخراب، والفساد، والأسى، والحزن، والذل، والتخلي، والنكران) [٢]

فاللون الأسود ههنا يحمل دلالات العداء، والترصد، والفساد، والتردي.

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٨٥.

(٢) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ١٢٢

اللون الأحمر:

وظف الشاعر (حسن طلب اللون الأحمر في وصف الحرية، إذ يقول: الحرية الحمراء، في دلالة على الثمن الباهظ الذي يدفعه أولئك الثوار حصولًا عليها، والخطر الداهم الذي يحيق بهم حال مطالبتهم بها، والسعي الحثيث للحصول عليها، يقول طلب[١]:

هذه قمصاننا: مغسولة بالدم

والحرية الحمراء فوق الكم:

وشمًا.. وعلامةْ

تقول جي. سي. كوبر عن رمزية اللون الأحمر: (هو قمة الألوان وأرقاها، يمثل الشمس وكل آلهة الحرب، وهو الذكورة، والمبدأ الفعال، والنيران، والشمس، والملكية، والحب، والمتعة، والابتهاج، والولع، والحماسة، والطاقة، والوحشية، والدماء، وشبق الدماء، ودماء الإثم، والغضب والانتقام، والاستشهاد، والجلد، والإيمان، والشهامة)[٢] . إن المطالبة بالحرية قد فجرت في دم أولئك الثوار الحماسة والقوة والعزيمة والإرادة الماضية، والثبات، والإقدام، ورباطة الجأش، وقوة الشكيمة.

اللون الرمادي:

إذن ذلك اللون يشي بحدوث حالة من الضبابية والغموض والتداخل. تقول جي. سي. كوبر: (هو لون متعادل، ويرمز إلى الحداد والكآبة، والرماد، والمهانة،

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٧.

(٢) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ١٢٨

والندم، وعند المسيحيين موت الجسد وخلود الروح، ومن ثم+، فهو اللون الذي ترتديه الجماعات الدينية، وعند اليهود هو الحكمة) [١]

المرأة بوصفها رمزًا:

وظف (طلب) الرمز الأنثوي توظيفًا بالغ الأثر والرهافة والفنية على أحوال الثورة ومآلها، فالثورة في حال قوتها واتحاد ثوارها تمثلها (شهد) تلك الشابة الفاتنة التي اجتمعت لها كل مقومات الجمال والمثالية الشكلية والنفسية، فهي ساحرة تختلب العقول بجمالها الأخاذ الذي لا يضاهى، وهي عذبةٌ، نبيلةٌ، فاتنة الأوصاف، قادرةٌ على توحيد صفوف الثوار، وجذب أنظارهم، واختلاب عقولهم، وهي –في الوقت نفسه– تربطها بالشاعر آصرة مودةٍ، وحب صاف نقي لا تدنسه المطامع أو الأهواء، لتستحيل بعد غيها وشرورها وترديها في مزالق السخف والرذيلة إلى (غادة) المقطم. لقد شكَّلت شخصية (شهد) معادلًا موضوعيًّا للثورة حال قوتها وإيجابها، لتستحيل بعدما منيت به من ضرباتٍ إلى شخصية (غادة).

تقول جي. سي. كوبر عن رمزية المرأة: (هي الأم العظيمة، والإلهة الجبارة، ومبدأ الأنوثة، وهي القوى الغريزية في مقابل النظام المنطقي الذكري، وهي رمزية بالغة التعقيد)[٢]

إن الكيان الأنثوي (غادة) يشير إلى التحول الجذري السلبي الذي منيت به تلك الثورة، وهدم ثوابتها وأصولها التي عليها قامت، ليؤكد فداحة خطب أولئك الثوار الذين ضحوا بأرواحهم بعد أن ارتوت بدمائهم الطاهرة. إن تلك العلاقات المحرمة الآثمة التي سقطت غادة في بئرها، وتلوثت بدنسها لتدل على خيبة المسعى والخسارة والبوار. وتبدو (شهد) التي دفع بها الشاعر في بنية سفره

(١) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ١٢٧.

(٢) المرجع السابق: ٦٨٠.

الشعري بوصفها رمزًا بالغ الحضور والكثافة امرأة خائنة قد لوثت سمعتها مقابل المصلحة، وتبدو فجيعة الذات الشاعرة عند لحظة اكتشافها هذا الموقف اللعين المرذول الذي أطاح بقوتها، وزلزل كيانها.

لقد أجاد (طلب) في توظيف ذلك الرمز الأنثوي، إذ اختار امرأةً واحدةً بدت بشخصيتين متناقضين غاية التناقض في الطبائع ليصور ذلك البون الشاسع في تطور مسيرة الثورة. ولعل اختيار ذلك الرمز الأنثوي يؤكد خصوبة ذلك الحدث الثوري، الذي حمل في رحمه الثر جملةً من التغييرات الجوهرية الجذرية في بنية مجتمعاتنا العربية.

لقد أوغل طلب في توظيف الرمز الأنثوي، فهو تارةً يستخدم (الطفلة البكر) في قوله[١]:

فمرةً يرونها كالطفلة البكر التي سيقت:

من الأهل إلى البغل..

لكي تفض من قبل المحيض

للدلالة على سوء تقدير أمر الثورة، وفساد أحكام ذلك (الآخر) عليها. وتارةً أخرى يلتقيه القارئ يشبهها (بالمرأة الحامل) في قوله:

ومرةً كالمرأة الحامل..

تخشى خطر الإجهاض قبل موعد المخاض

لا يدرون أنها إذا ما أجهضت

قادرة فورًا على التعويض

فالثورة لن تتخذل، ولن تتضعضع، ولن ينحسر تقدمها وإيجابها، فهي متجددةٌ دومًا، ولن تنكسر، أو تنتهي نهايةً سلبيةً.

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ٨٦.

الشجرة:

اتخذ حسن طلب من الشجرة رمزا بالغ الرهافة على الثورة، إذ يقول[١]:

كنا بلغنا آخر الميدان من شارع رمسيس
حيث توقفت بهم
أريتهم شجيرة عطشانة في مدخل الميدان
قد ترنحت أغصانها.. وصوحت أوراقها
بل ذبلت أزهارها.. ثم تساقطت
لكي يدوسها بالنعل من يدوس!

فتلك الشجرة بصيغة التصغير تشير إلى ضآلة أمرها، وحداثة عهدها، وعطشها يدل على ذلك الاستلاب والحرمان والبوار الذي تعانيه، ليتعانق مفردة (مدخل) التي توحي بوأدها على أعتاب البدايات. تقول جي. سي. كوبر عن رمزية الشجرة إنها تعني: (التجلي الكلي، والبناء التركيبي للسماء والأرض، والحياة الديناميكية في مقابل الحياة الساكنة الاستاتيكية للحجر) [٢]

الشباب:

ولعل انصراف أبناء الشاعر يشير إلى نهاية اللقاء بين قطبي (الشباب/ الشيوخ) اللذين جمعت بينهما الثورة في بوتقة واحدة. يقول طلب[٣]:

وقبل أن أودع ابني وابنتي
قلت لزوجتي: تعالي
في سديم هذه الوحشة.. يا رفيقة الرحلة

---

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٦٥.

(٢) جي. سي. كوبر، الموسوعة المصورة للرموز التقليدية، ترجمة مصطفى محمود، ط المركز القومي للترجمة–مصر، ط١ ٢٠١٤م: ٦١٥

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٦٦.

ليس لي سواك من أنيس

فقد آزرتهم الثورة، وألفت بينهما وصهرتهم في بوتقةٍ واحدةٍ.

الشاعر وزوجه:

يشير انصراف الشاعر من الميدان بصحبة زوجه إلى حالة الانفصال والقطيعة بين الأجيال التي اتحدت زمن الثورة، وصارت جسدًا واحدا، فاليوم بعد تلك الخيبات التي منيت بها الثورة قد تفسخ ذلك الاتحاد، وانفصمت عراه، وافترقت الأجيال، ومضى كل إلى سبيله، وكأن ثنائية (الشاعر وزوجه) تشير إلى جرثومة الحياة التي بقيت نابضةً في جسد الثورة بعد إصابتها بطعناتٍ نافذةٍ في سويداء قلبها.

التماهي بين العاشق/ الثائر:

إن تلك الثورة قد اختلبت العقول، وأسرت الأرواح، فكأنما الثوار عشاق قد تناهوا إلى ذروة الوجد والشوق والإخلاص والتفاني، وقد بلغوا في المحبة غايتها ومنتهاها، فقد أسلموا قياد أرواحهم لثورتهم المجيدة، وقد آلوا على أنفسهم ألا يبرحوا الميدان حتى يتحقق لهم النصر. ففورة العشق تتناسب والثورة، فكلاهما ينبع من شعورٍ جارفٍ، ويصطلي بالحماسة والفورة، يقول حسن طلب[1] :

كان الذي كان

التقى الآن الحزينان

وكان ما باح –ولم يبح– به هذا لذاك.

(١) المصدر السابق : ١٣٥.

إن خريفهم التعس قد عبر عنه طلب بتحول الذات الأنثوية من (شهد) تلك الفتاة المثالية الفريدة تامة الخلق والخلق إلى غادة تلك الحيزبون الفاجرة التي عاثت في الميدان فسادًا وإغواءً للثائرين، يقول طلب[١]:

كم أوحشتني شهد

كلما طفقت أذرع الميدان

لم أجد سوى غادة تسعى سافرة

إن شهد تلك الفتاة الملائكية التي تقطر نقاء وعذوبة وطهرًا، فتلهم الثوار، وتشعل حماستهم، وتغريهم بالتضحية والفداء، قد أمست من بائعات الهوى، وقد ماتت فيها معاني البراءة والعفة، يقول طلب[٢]:

واحسرتا عليك يا شهد

على وجه ملائكي طفولي

ونفس شاعرة

لقد انسحب رمز المرأة في فضاء (الميدان) على الثورة، فأصبح ذلك الكيان الأنثوي (شهد) رمزًا بالغ الدلالة والحضور والتكثيف على الثورة، فشهد تبدو في إطار هذا السفر امرأة فاجرةً لعوبًا تحتال على رئيسها بغنجها ودلالها وأنوثتها|، وتبيح جسدها للآخر مقابل تلك المصالح الدنيئة.

تقول جي. سي. كوبر: (المرأة هي الأم العظيمة، والإلهة الجبارة، ومبدأ الأنوثة، يرمز إليها بالقمر والأرض والبحار، وهي القوى الغريزية في مقابل النظام المنطقي الذكري، وهي رمزية بالغة التعقيد).

يقول طلب في قصيدته الموسومة (هل أكون قد عشقت عاهرة؟!)[٣]

(١) المصدر السابق: ١٧٧.

(٢) المصدر السابق : ١٧٦.

(٣) المصدر السابق: ١٧٥.

وهكذا: دارت علينا الدائرة

دارت على الثائر في الميدان.

ألقى بنا صرف الزمان: خارج الميدان.

فالثوار قد أمسوا خارج فضاء (الميدان) في دلالة على الخسارة والبوار. إن خريفهم التعس قد آل بهم إلى منتهى الإنكار لنسبهم الثوري، ودحض كينونتهم وعملهم البطولي، يقول طلب: ٢٨٤[١]:

والثورة تلك الماكرة

قد أنكرت كل بنيها

إن أمومة الثورة قد أفضت إلى منتهى السلب والزيف والتجاهل.

إن ظهور شهد يتبدى عبر غير مرحلة، فهي في بادئ الأمر مانحة للغرام تجود بوصلها، لتبدو بعد ذلك مماطلة في الوعود مخلفة للعهود، لا تعير المحب انتباهًا، ولا تأبه بمناداته وإشاراته، ويوضح تصوير أبعاد الفضاء مدى الشتات وحالة الانفصال بينهما، يقول طلب[٢]:

كان الشاعر فوق الشط الشرقي الأقرب للميدان

يجاهد أن يستحضر طيفًا ويغازله

كانت شهد هناك على الشط الغربي الأبعد

كان ينادي لا تسمع.. ثم يشير فلا تنتبه

ليأتي دال موقعها (الشاطئ لغربي) الأبعد مشيرًا إلى الاضمحلال، ومنذرًا بالنهاية والزوال، ويؤكد –في الوقت نفسه– حالة اللاتواصل والانقطاع بينهما، لتتناسب مع حالة (الانفصال) بين أولئك الثوار والعاشقين، يقول طلب[٣]:

---

(١) المصدر السابق: ١٧٥.

(٢) المصدر السابق : ١٢٢.

(٣) المصدر السابق: ١٣٥.

التقى الآن الحزينان معًا

وكان ما باح –ولم يبح– به هذا لذاك!

فتمازج الثورة بالعشق قد أفضى إلى خيباتٍ مشتركةٍ في قلوب الفريقين، وانتهى إلى حسرةٍ وفجيعةٍ وذهول.

وينسج الشاعر غير مرةٍ قصة اكتشاف خيانتها، وفجيعته إزاء مشهدها المبتذل، إذ يقول في قصيدته (حزام النار... وحزام العار) [١]

هل كمهت عيناك

إذ ترفع من بائعة الهوى

إلى منزلة فوق السماك

قبل أن تضبطها عارية النهدين

في مكتبها

بين يدي معشوقها اللطخ

ويعاود رسم أبعاد مشهد الخيانة، ليكرر ظهورها عارية (الثديين)، إذ يقول[٢]:

كم أوحشتني شهد

كلما طفقت أذرع الميدان

لم أجد سوى "غادة" تسعى سافرة

كم صدمتني عندما رأيتها عارية النهدين

في إدارة التسويق

مستسلمة بين يدي مديرها الصفيق

---

(١) المصدر السابق : ١٧٠.

(٢) المصدر السابق: ١٧٧.

وكأنه يستدعي إلى رحاب نصه المثل الجاهلي (تجوع الحرة، ولا تأكل بثديها)، في إشارةٍ إلى تلوث سمعة الثورة وسقوطها في براثن المدعين الأفاكين الآثمين، وانسلاخها من معاني الطهر والنقاء والإيجاب، إذ يقول: [١]:

"شهد" التي أحببت ماتت

بعد هذ اليوم..

لا تشك لأصحابك ما بك

البغي الآن قد عادت إلى تاريخها

فقد اضطربت الثورة، وانقلبت على أعقابها على يد أولئك المناهضين لها، وتحولت من الخصب إلى الجدب، وهبت عليها ريح السموم، ف(شهد) قد أمست دالة على التردي والانهيار ومزالق السخف والخيانة، وهي تعترف بذلك السقوط المدوي لها، يقول طلب[٢]:

فذلك الحب العفيف الأبدي.. قد تركته لكم

صرت به.. ومن إليه ينتمون: كافرة

أصبحت قد آمن قلبي:

أن سوق الطهر والعفاف بائرة

والآن لم أعد أرى في الحب

إلا لحظة منعشة للحس أو فرفشة مدهشة

فهي تسلينا لكي ننسى الهموم الحاضرة

(١) المصدر السابق: ١٧٣.

(٢) المصدر السابق: ١٨١.

التناص:

إن التناص من وجهة نظر (كاتي وايلز) (يمكن أن يحدد كأقوال/ نصوص في علاقتها مع أقوال/ نصوصٍ أخرى. وهكذا، حتى داخل النص الواحد يمكن أن يكون، على الأصح، "حوارًا" مستمرًا بين نص معطى ونصوص/ أقوال أخرى توجد خارجه، أدبية كانت، أو غير أدبية: سواء داخل فترة التأليف نفسها، أم في قرونٍ سابقةٍ)[١].

وأورد (فيصل الأحمر) تعريفًا له، إذ يقول: (هو مفهوم يدل على وجود أصلي في مجال الأدب، أو النقد، أو العلم، على عَلاقة بنصوصٍ، وأن هذه النصوص قد مارست تأثيرًا مباشرًا، أو غير مباشرٍ على النص الأصلي عبر الزمن)

وقد وظف الشاعر التناص في جملة من العناصر في ثنايا سِفْره الشعري، ولعل من أبرزها:

١- التناص مع القرآن الكريم:

شكَّل التناص مع القرآن الكريم في هذا السفر الشعري منبعًا ثرًّا يستمد منه الشاعر دفقًا شعوريًّا بالغ القوة والرهافة والتأثير في المتلقي، ولعل من بين أبرز أمثلته:

أ- قصة سيدنا موسى:

استحضر (طلب) قصة وضع أم سيدنا موسى عليه السلام رضيعها في اليم، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٧)

(١) كاتي وايلز، معجم الأسلوبيات، ترجمة خالد الأشهب، ط المنظمة العربية لترجمة، بيروت– لبنان، ط١ ٢٠١٤م: ٣٨٩.

فالشاعر سيتناص مع تلك القصة السالفة، فهو الآخر سيضع خطاباته الأثيرة التي تحمل عصارة قلبه، وفيض مشاعره، ودفء إحساسه، في صندوق، ويودعها النيل، ويبعث إليها بأشواقه وتباريحه، ويطلب من رسوله (الصندوق) أن يرفق غاية الرفق مع الحبيب، إذ يقول في قصيدته الموسومة (صندوق عائم) [1]:

فتنحيت.. استوحيت حكاية موسى العبراني

وضعت قصائد حبٍّ في صندوقٍ

إن قلب أم موسى بعد أن ساورته القلاقل، وحامت به الهواجس قد اطمأن بعد أن رد الله تبارك وتعالى ابنها إليها، أما الشاعر فهو يقف على النقيض منها، فرسائله التي نفث فيها عصارة قلبه ومكنون روحه لن تلقى لها راعيًا أو مُكْرِمًا، ولن تُحْسِن الحبيبة وفادتها، فشتان ما بين الحالتين.

إن ذلك العنوان –صندوق عائم– الذي يتضافر مع قصة سيدنا موسى عليه السلام يشيران معًا إلى حالة عدم الاستقرار، فمآل الثور يكتنفه الغموض.

ب– قصة هدهد سيدنا سليمان:

وظف (طلب) التناص في قصة هدهد سيدنا سليمان عليه السلام والملكة بلقيس في إشارةٍ إلى مدى التحول الجذري والتغيير الجوهري في حال أولئك الثوار، وبيان البون الشاسع بين أوضاعهم الحالية وما سيؤولون إليه بعد نجاح ثورتهم المجيدة.

يقول تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ **(النمل: ٢٠–٢٢)**

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م:

٢- التناص مع الشعر العربي القديم:

اتكأ (طلب) في تناصه على ذخيرته الثرة من الشعر العربي القديم، فمعينه منه فياضٌ لا ينضب، إذ يقول في قصيدته الموسومة (أي انفلات) [١]

فليبك قومٌ من فداحة مثل هذا الخطب..

أو فليضحكوا

فمن الخطوب المبكيات.. المضحكات

استحضر طلب بيت المتنبي:

ومـــاذا بِمِصـــرَ مِـــنَ المُضـــحِكاتِ وَلَكِنَّـــــهُ ضَـــــحِكٌ كَالبُكـــــا

ليدلل على فداحة حدث الانفلات الأمني الذي أدى إلى خرابٍ بالغٍ في أنحاء مصر عمَّ مؤسساتها كافة، فهو موقفٌ يستأهل اختلاط الضحك بالبكاء في هذا الحدث المأساوي.

٣- التناص مع المثل الجاهلي:

استعان (طلب) بالمثل الجاهلي (يداك أوكتا، وفوك قد نفخ) [٢] الذي عمد إلى بناء قصيدته على مضمونه، إذ يقول في قصيدته الموسومة (حزام النار.. وحزام العار) [٣]:

---

(١) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١١٥.

(٢) المفضل الضبي (ت نحو ١٦٨ هـ*، أمثال العرب: ٧٧. أبو عبيد البغدادي، كتاب الأمثال (ت ٢٢٤هـ)، كتاب الأمثال: ٣٣١. أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥)، جمهرة الأمثال: ٢/ ٢٤٣. ابن رفاعة الهاشمي (ت بعد ٤٠٠هـ)، كتاب الأمثال: ١/ ٢٨٩. الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ)، التمثيل والمحاضرة: ١٦. الميداني (ت ٥١٨ هـ)، مجمع الأمثال: ٢/ ٤١٤. الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، المستقصي في أمثال العرب: ٢/ ٤١٠. ابن حمدون (ت ٥٦٢ هـ)، التذكرة الحمدونية: ٧/ ١٠٤.

(٣) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م: ١٦٧.

يقال في أمثالهم:

(يداك أوكتا.. وفوك قد نفخ)

فاحتمل الآن الغرام

من تباريح (حزام النار)

بالجرم الذي أنهك.. والقلب الذي رضخ.

ولعل تصدير طلب قصيدته بهذا المثل الجاهلي يضع المتلقي أمام إحساس الذات الشاعرة بمسؤوليتها الكاملة بوصفها معادلًا موضوعيا للشعب عن سوء المنقلب والمصير، فقد جنت الخسارة والبوار، لأنها لم تحتكم إلى معايير العقل والمنطق، وانخدعت بالمظاهر البراقة الجوفاء الزائفة، فآلت إلى تلك العواقب الوخيمة.

لعل فورة ذلك الحدث الثوري قد حجبت الحقيقة عن النواظر، وقد حَلَّقَتْ بالشعوب بعيدًا عن دائرة الواقع، وأناخت بهم في أودية العاطفة، ليفيقوا على الأزمة التي طوقتهم، وأطبقت عليهم، وأحاطت بهم من جميع الجهات، فلا مناص لهم مثلما يطوق الحزام خصر المرء.

إن ذلك التماهي بين صيغتي (اسم الفاعل خادعة/ اسم المفعول مخدوعة) يشير في العنوان الفرعي للقصيدة إلى انعدام وضوح الرؤية، وكأن الذات الشاعرة تستشعر خسارتها ذلك الرهان الثوري. وقد أصرَّ طلب على تقديم المثل الجاهلي في مفتتح القصيدة ومختتمها موظِّفًا (البناء الدائري)، ليؤكد عدم انسلاخ تلك الشعوب من مغبة النهاية، فذلك المثل الجاهلي سيطوِّق –هو الآخر– تلك الدعاوى الكاذبة التي ستتذرع بها الشعوب.

نتائج الدراسة:

١. شكَّل ديوان (سِفْر الشهداء) لحسن طلب صورةً حيةً نابضةً لأحداث ثورة يناير ٢٠١١م.
٢. تباينت الآلات التي اتكأ عليها الثوار مع آلات ذلك الآخر التي أبرزت بدورها اللجوء للعنف والتطرف والوحشية.
٣. اتصف الشهداء جميعهم على اختلاف مشاربهم بالاتحاد في الخصائص المميزة لهم، نحو: الإخلاص، الإبداع، الإيمان التام بقضايا الوطن.
٤. أبرز طلب تباينًا صريحًا بين الثوار والآخر المناهض لهم، بدا ذلك جليًّا في السمت والطباع والآلات، فقد تمسك الثوار بأقلامهم، وريشتهم، وأدواتهم الفنية الإبداعية، بينما اعتمد الآخر على آلات القتل والدمار.
٥. شكَّل ديوان (سفر الشهداء) لطلب صورةً حيةً نابضةً لأحداث ثورة يناير ٢٠١١م، عرض فيها بجلاءٍ ووضوحٍ وشفافيةٍ أبرز مراحل تلك الثورة، وفقهها، وصنوف الثائرين فيها.
٦. أبان طلب بقوةٍ عن حماسة أولئك الثوار، ومدى إيمانهم بقضيتهم الثورية التي لن تنمحي، أو ينطفئ أوارها في نفوسهم الأبية الطامحة للحرية والعدالة والمساواة والديموقراطية.
٧. شكَّلت صيحات الثوار أداةً فاعلةً في المد الثوري، فقد انقضت بها دعائم بنيان الغاشمين.
٨. شكَّل ذلك السِّفْر الشعري تسجيلًا دقيقًا لطبيعة أولئك الشهداء الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم إعلاءً لكلمة الوطن في مختلف الأصعدة والأزمنة منذ السبعينات مرورًا بقيام ثورة يناير ٢٠١١م وما تلاها.
٩. حرص طلب في هذا السفر الشعري على إبراز قيمة الشهادة والتضحية من أجل الوطن.

١٠.مَثَّل الفضاء في هذا السفر مفردةً بالغة التأثر بالروابط بين الأشخاص، فقد خلقت العلاقات الإنسانية الفياضة بين الثوار آصرة مودة انعكست بدورها على طبيعة المكان، وقدراته، وأبعاده، وطاقاته.

١١.أعلن طلب استمرار المد الثوري مهما تبدلت الظروف، فإرادة الشعوب هي الفاعل الحقيقي لأي تغيير إيجابيٍّ على الأصعدة جميعها.

١٢.جسَّد طلب تلك المراحل المتباينة لثورة يناير ٢٠١١م مؤكدًا عزيمة الشعوب وإرادتها وقدرتها على تغيير مصائرها وأقدارها.

١٣.شكَل ذلك السفر الشعري مرآةً جليةً شفيفةً لقدرة النخبة المثقفة على المشاركة، والتفاعل الإيجابي البناء، ووضع رؤية واقعية منضبطة لتسيير دفة الأمور.

ملحق (١)

الأعمال الشعرية المنشورة للشاعر (حسن طلب):

١- أزل النار في أبد النور، ط١، دار النديم، القاهرة ١٩٨٨م، ط٢: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م).

٢- إصحاح الثورة (ج٢ من ثلاثية: إنجيل الثورة وقرآنها)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠١٢م.

٣- آية الميدان (ج١ من ثلاثية: إنجيل الثورة وقرآنها)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١١م.

٤- آية جيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ط٢: دار التلاقي، القاهرة ٢٠٠٨م.

٥- باب الصبابات فصل الخطاب، دار المعارف، القاهرة ٢٠١٥م.

٦- بستان السنابل، مختارات من الدواوين المنشورة المخطوطة، هيئة الكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

٧- حجر الفلاسفة، مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٦م.

٨- زمان الزبرجد ط٢، ضمن مجموعة: (قصائد البنفسج والزبرجد)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢م.

٩- سيرة البنفسج، ط٢، ضمن مجموعة: (قصائد البنفسج والزبرجد)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة ٢٠٠٢م.

١٠- شموس القطب الآخر، دار المها، القاهرة ٢٠١٧م.

١١- طهطا المهد.. طهطا اللحد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٦م.

١٢- عاش النشيد، مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٣- غاية المراد من زاد المعاد، دار الأديب، القاهرة ٢٠١٧م.

١٤- قربان لإله الحرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢م.

١٥- لا نيل إلا النيل، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٣م. ط٢: مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٦م.
١٦- ما كان في الإمكان.. كان، الهئية المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٢٠م.
١٧- متتالية مصرية، مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٧م.
١٨- مواقف أبي علي وديوان رسائله وبعض أغانيه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.
١٩- نزهة في ظلام الضوء (مختارات)، دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٨.
٢٠- هذه كربلاء، وأنا لست الحسين، من ديوان (قربان لإله الحرب)، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٥م.
٢١- وشم على نهدي فتاة، دار أسامة، القاهرة ١٩٧٢م، ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥م.
٢٢- يكتب الباء يقرأ الجسد، دار العين، القاهرة ٢٠٠٩م.

ثبت الرسائل الجامعية والبحوث في أعمال (حسن طلب):

١- إسلام غازي حسن طعيمة، العتبات النصية في شعر حسن طلب (نماذج مختارة)، رسالة ماجيستير تحت إشراف أحمد جبر شعث، جامعة الأقصى- غزة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية- شعبة الأدب والنقد، أغسطس ٢٠٢١م.
٢- نهى مختار محمد يوسف، البديع في شعر حسن طلب، دراسة في الأشكال والوظائف، رسالة دكتوراه تحت إشراف محمد عبد المطلب مصطفى، قسم اللغة العربية، كلية الألسن، جامعة عين شمس، أكتوبر ٢٠٢٠م.
٣- نهلة فاروق سيد نصر، التناص في شعر حسن طلب، رسالة ماجيستير تحت إشراف محمد دياب محمد غزاوي، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الفيوم، سبتمبر ٢٠٢٠م، وقد حاولت الباحثة سبر أغوار التناص

في جملةٍ من دواوين الشاعر (حسن طلب)،، وهي: الأعمال الكاملة للشاعر حسن طلب مج(١-٣)، وديوان (إنجيل الثورة وقرآنها) الجزء الأول (آية الميدان)، والجزء الثاني (إصحاح الثورة)، ولم تتطرق إلى درس الجزء الثالث -سِفْر الشهداء- موضوع الدرس.

٤- مروة مالك، البناء الفني في شعر حسن طلب، دراسة أسلوبية، رسالة ماجيستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة حلوان ٢٠١٧م.

٥- ولاء محمد جابر أحمد نعيم، الرقمنة وسيلة أم وعي مغاير، قراءة في منشورات حسن طلب الشعرية على الفيس بوك، بحث بالمؤتمر الدولي الثالث بكلية الآداب بعنوان (الرقمنة بين الحاجة والضرورة دراسة تطبيقية على جامعة دمنهور) الذي تم انعقاده في الفترة من ٢١-٢٢ مارس ٢٠٢١م

قائمة بالمصادر والمراجع:

أولًا: المصدر:

١- سِفْر الشهداء (ج٣ من ثلاثية: إنجيل الثورة وقرآنها)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٩م.

ثانيًا: المراجع:

(١) ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون (ت٥٦٢ هـ)، التذكرة الحمدونية، ط دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ.

(٢) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ط دار صادر بيروت- لبنان، ط٣ ١٤١٤ هـ.

(٣) أبو الخير، زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة الهاشمي (ت بعد ٤٠٠ هـ)، كتاب الأمثال، ط دار سعد الدين، دمشق، ط١ ١٤٢٣ هـ.

(٤) أبو القاسم الشابي، ديوانه، قدَّم له وشرَحَ: أحمد حسن بسج، ط دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٤ ٢٠٠٥م.

(٥) أبو عبيد، القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت٢٢٤هـ)، كتاب الأمثال، تحقيق: عبد المجيد قطامش، ط دار المأمون للتراث، ط١ ١٩٨٠م.

(٦) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط١ ٢٠٠٨م.

(٧) إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية.

(٨) بسام قطوس، سيمياء العنوان، ط وزارة الثقافة، عمان- الأردن، ط١ ٢٠٠١م.

(٩) توفيق الحكيم، ثورة الشباب، ط مكتبة مصر.

(١٠) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢ ١٩٨١م.
(١١) الجوهري، الصحاح.
(١٢) جيرالد برنس، قاموس لسرديات.
(١٣) حبيب مؤنسي، فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية– دراسة)، اتحاد الكتاب العرب.
(١٤) حسن طلب، ديوان سفر الشهداء، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر ٢٠٢٠م.
(١٥) حميد لحمداني، بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ط المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط١ ١٩٩١م.
(١٦) خالد المعيني، كي لا تسرق الثورات (دراسات موضوعية في ربيع الثورات العربية)، منشورات ضفاف، بيروت، ط١ ٢٠١٤م.
(١٧) خالد حسين حسين، في نظرية العنوان– مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، ط دار التكوين.
(١٨) رائد محمد نوري حميد، صورة الثورة في الشعر العربي في العراق (ثورة الرابع عشر من تموز في العراق، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد الرابع والخمسون– مارس ٢٠٢٠م.
(١٩) رجب أبو دبوس، الماركسية والثورة (النظرية والواقع)، ط المركز العالمي لدراسة وأبحاث الكتاب الأخضر، ط١ ١٩٨٥م
(٢٠) رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي لنصوص، ط دار الحكمة، ٢٠٠٠م.
(٢١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط٢ ١٩٨٧م.

(٢٢) سامي الصلاحات، معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ط١ ٢٠٠٧م.

(٢٣) سامي ذبيان وآخرون، قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط رياض الريس للكتب والنشر، ، ط١ ١٩٩٠م.

(٢٤) سلمان بو نعمان، فلسفة الثورات العربية (مقاربة تفسيرية لنموذج انتفاضي جديد)، ط مركز نماء للبحوث والدراسات.

(٢٥) سمر الديوب، الثنائيات الضدية.

(٢٦) سيز قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، ط مكتبة الأسرة، مصر ٢٠٠٤م.

(٢٧) طه حسين، خصام ونقد، ط دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٩ مارس ١٩٧٩م.

(٢٨) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين.

(٢٩) عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم: سعيد يقطين، ط الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١ ٢٠٠٨م.

(٣٠) عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة- مصر، ط٣ ٢٠٠٠م.

(٣١) عسكر بابازاده أقدم، وآخرون، النزعة الملتزمة في شعر ثورات الربيع العربي بمصر (مقاربة وصفية تحليلية في نماذج مختارة)، مجلة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية في جيرفت، السنة الرابعة عشرة، العدد (٥٣)، ربيع ١٤٤٣هـ

(٣٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، (ت ٣٩٥ هـ)، جمهرة الأمثال، ط دار الفكر، بيروت– لبنان.
(٣٣) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط٢ ١٩٨٤م.
(٣٤) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط دار الحديث، القاهرة– مصر: ط ٢٠٠٨م.
(٣٥) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ط دار الحديث، القاهرة– مصر، ٢٠٠٨م
(٣٦) فيصل محمد عبد الغفار، الربيع العربي، ط الجنادرية للنشر والتوزيع، الأردن، ط١ ٢٠١٦م.
(٣٧) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية.
(٣٨) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط مكتبة لبنان ناشرون، ط دار النهار للنشر، ط١ ٢٠٠٢م.
(٣٩) مجدي عبد الهادي وآخرون، م٢ يناير (التاريخ. الثورة. التأويل)، ط عرب للنشر والتوزيع، مصر، ط١ أبريل ٢-١١م.
(٤٠) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر.
(٤١) محمد القاضي، معجم السرديات، ط دار محمد علي للنشر، تونس، ط١ ٢٠١٠م.
(٤٢) محمد توفيق الضوي، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة، دراسة في ميتافيزيقا برادلي، ط منشأة المعارف بالإسكندرية.
(٤٣) محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.
(٤٤) المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (ت نحو ١٦٨ هـ)، أمثال العرب، ط دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١ ١٤٢٤هـ.

(٤٥) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار المعرفة، بيروت– لبنان.

(٤٦) ناهدة حسين علي الأسدي، ربيع الثورات العربية (أسبابه وتحولاته)، ط دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ٢٠١٥م.

(٤٧) نذير العظمة، أدب المقاومة بين الأسطورة والتاريخ، ط دار علاء الدين، سورية– دمشق، ط١ ٢٠١٥م.

(٤٨) وضاح زيتون، معجم المصطلحات السياسية، ط نبلاء ناشرون وموزعون– الأردن—عمان، وط دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن– عمان،٢٠١٤م.

(٤٩) يسري عبد الله، جدل الشعر والثورة في شعر حسن طلب، مجلة الفيصل، ٣٠ يونيو ٢٠١٧م.

(٥٠) يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ط الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت– لبنان ط١ ٢٠١٥م.